زهران القاسمي

القنّاص

رواية

الأعمال الكاملة
t.me/kotbhm

القَنّاص

زهران القاسمي

القَنّاص

روايـة

مسعى للنشر والتوزيع
Masaa Publishing & Distribution
2014

القنّاص (رواية)
زهران القاسمي

الطبعة الأولى 2014

ISBN 978-99958-00-00-0

رقم الإيداع بإدارة المكتبات العامة
د.ع. 0000 / 2013

جميع الحقوق محفوظة

مسعى للنشر والتوزيع
Masaa Publishing & Distribution
ص.ب: 65317 المنامة، مملكة البحرين
هاتف: 221 177 77 973+
فاكس: 212 177 77 973+
البريد الإلكتروني: info@masaapublishing.com
الموقع على شبكة الإنترنت: www.masaapublishing.com

Copyrights © Masaa Publishing and Distribution

يمنع نسخ أو استعمال أي جزء من هذا الكتاب بأي وسيلة تصويرية أو الكترونية أو ميكانيكية بما فيه التسجيل الفوتوغرافي والتسجيل على أشرطة أو أقراص مقروءة أو أي وسيلة نشر أخرى بما فيها حفظ المعلومات أو استرجاعها من دون إذن خطي من الناشر.

صورة الغلاف:

تصميم الغلاف: محمد النبهان

الصف والإخراج الفني

GRADIENT MEDIA
info@gradientmedia.net
www.gradientmedia.net

إهداء:

إلى شهد

ميس

حمدان

وفرح

ما نشف

غيل الحكاية

ما نشف

ما نشف

.....

.....

أغنياته كل عابر تفتنه

تاخذه لـ شروده العذب البعيد

تاخذه لـ أيامه الأندى

تاخذه لـ أيامه الأحلى

ينفرع حزنه

حمود الحجري

الفصل الاول

(1)

عند مدخلِ كهفٍ كبيرٍ في قمةِ الجبل البعيد يربض تيسُ الوعل، مُحنياً رأسَه، مُغمضاً عينيه، داخلاً في سباتٍ عميق.

كانت شجرة ظَفَر تقف أسفل المدخل تحيط بها نباتاتُ القضب ذات الزهور اللؤلؤية الصفر، بعيدانها الخضر الدقيقة، التي تتشعب ممتدة مثل سهام خارجة من كنانة قنّاصٍ قديم.

أطلقت الريحُ عواءها في السفوح الجبلية، ما جعلت تيسَ الوعل يجفل وحين لم يبد الأمر منذراً بخطر حكَّ بقرنهِ المعقوف ظهرَه، هزّ رأسَه ثم نظر إلى البعيد، وما لبث أن أغمض عينيه وعاد إلى سباتهِ ثانية.

يتنقل طائر أبو صريد الصغير من سفح إلى آخر، يقف على غصنِ الشوع ثم يفارقه إلى شجرة لقم كبيرة، لا يقف في مكان واحد، انه يقفز بين أغصان الشجرة، يطير إلى شجرة لقم أخرى نبتت في قلب حجارة الشرجة عند يمين الكهف. يغرد أبو صريد وهو يمارس انتقاله الفوضوي مالئاً المكان بصوت يشبه إلى حد ما رنين سلسلة معدنية، تأخذه السفوح بين جوانبها، سرعان ما يجيبه طائرُ أبو صريد آخر من إحدى القمم، فتتزايد قفزاتُه، وهو يقترب شيئاً فشيئا من مصدر الصوت، وكذلك يفعل الطائر الآخر، حتى يلتقيا فوق شجرة عسبق عملاقة احتلت منحدرا تطلُّ شرفته صوبَ الوادي السحيق، يقفز الطائران حول بعضهما، يغردان، ينزلان قليلاً، يقف أحدهما فوق صخرة ملساء في بطن الوادي، صخرة عظيمة، لونها أبيض مطرزة بخطوط

زرق داكنة، بينما الآخر اتخذ غصنَ شجرةِ الغاف عند ضفة الوادي مستقراً.

بلبلٌ وحيدٌ يتمايل مع غصنِ شجرة التين، ويلتقط بمنقاره أحشاء إحدى ثمراتها الناضجة وبين الفينة والأخرى يمنح الكون الغارق بين الجبال تغريدة صافية ويرجع صداها أكثر صفاء.

ثمة بِركٌ تتصل بجدول صغير تهبط مياه عذبة من عنقه وتتكاثر على طول الوادي، تسبح في ثناياها أسماك الصد الصغيرة، بينما الضفادع تلتصق برؤوس حجارة تطل من قلب المياه.

مثلما تنتشي امرأة بشعرها الناعم حين تتدفق فيه نسائم هواء صاف تفعل ذلك أشجار الحلف حين تتلاعب بين أوراقها نسماتُ ريح الأصيل وهي تهب متجهة صوب الأعالي تارة وصوب أسفل الوادي تارة أخرى، بينما تنبت أعشاب الغرز بسنابلها التي ما أن تفلح الريح بخطفِ شيء منها حتى يقتنصها طائرُ أبو صريد.

النخيلاتُ الضئيلاتُ وبعد أن ودَّع عذوقهنَّ آخرُ الثمار صار اليباس يزحف اليهن لكنهن ظللن بين جنبات الوادي متشبثاتٍ ببعض التربة بعيداً عن مجرى السيل الجارف، وقد أحاطهنَّ شجرُ الإثل والقطف متماسكاً بأغصانهِ مشكِّلاً حاجزاً قوياً للحفاظ على النخيلات حارسات هذا الوادي اللاتي عادة ما يتمايلن بطربٍ مع الهواء العليل مثل حوريات جبلية أصابهنَّ الوجد..

على صفحةِ السماء المشربة بلمعة الأصيل، ثمة سحبٌ خفيفة تتماغط ممتدةً، يحوم تحتها نسران قد بالغا في الارتفاع باسطين أجنحتهما مستسلمين للريح.

أعلى الكهف وعند منحدر نبتت فيه أعشاب السخبر والهندبوب وبعض الجعداء وقفت أنثى الوعل، بينما تناثر العسبق بلونه الأخضر المصفرّ في الجنبات، حجارة بلونٍ بنيّ غامق توحي بأنها احترقت ذات يوم، وثمة

عنز تقضم أعواداً من عشبة المحميرة، تأخذ قليلا منها ثم ترفع رأسَها موجهة نظرتها صوب قرية صغيرة تقبع بين الجبال.

قريةٌ قديمة، بيوتُها تتراصُّ مع بعضها في خطوط متعرجة، سككها نحيفة، بعض الأحيان لا تكفي لمرور شخصٍ واحد لقد بنيت تلك البيوت ذات الطراز السبعيني بسرعة ودون تخطيط، فما أن توفر الاسمنت حتى بدأ أصحابها بهدم بيوتهم الطينية وإعادة بنائها بالأسمنت، أو بترميمها من الخارج لتبدو على ذات الطراز الجديد، ترفعها عن الوادي تلال محاطة بمزارع النخيل والليمون، وتملأ أفئدتها عائلاتٌ تربطها أواصر دم وذاكرة حميمة، كل بيت لعائلة أو اثنتين. ربما يحسب الناظر إلى البيوت وقد تلاصقت ببعضها البعض أنها مضمومة هكذا من حرص على مساحة الأرض غير أن ذلك له علاقة بتلك الألفة الندية الزاهية التي يمكن رؤيتها على وجوه سكانها كلما اجتمعوا لأمر ما.

بين واديين كبيرين يقسمان المكان، نبت واحد من تلك البويتات، وعلى قطعة صخرية ملساء جلس صالح بن شيخان متكئا على الجدار في حوش بيته متأملا القمم البعيدة. كان صالح في آواخر الخمسينات من العمر، نحيلا ذا بشرة داكنة تشير أنه عاش أزماناً صيفيةً قائظةً، لحيته التي تغطي وجهه الدائريّ تعطيه وسامة يكشفها بياض الشعر الذي احتواها، كان يرتدي قميصاً داخلياً بلون التراب،الثقوب الواضحة فيه تدل على قدمه وهي دلالة انه كان ناصع البياض، بينما لف نصف جسده السفلي بإزار مخطط بالأزرق الداكن والأخضر الفاتح، ومزركش من الحواف بخيوط ذهبية. يجلس على حصير الخوص الذي ما زال يفضله على الحصر البلاستيكية، قريبا منه وضعت صينية صغيرة يتوسطها صحن التمر ودلة القهوة وعدد من الفناجين غارقات في مياه اناء فضي

من يرى اول مرة صالح بن شيخان هذا الرجل الذي سيدخل عامه الستين سوف يخصم من عمره مدة لا تقل عن عشرين سنة، ذلك لأن بنيته الجسدية ما زالت سليمة وقوية تغطيها بشرة توحي وهو ما يسعد به صالح مع نفسه انه مازال في عافية الشباب. يرجع ذلك إلى هواية المشي التي يحبها صالح والتي لايقف أمامها تلٌ ولا جبلٌ مهما كان ارتفاعه.

يفتح التيس النائمُ أمام مدخل الكهف عينيه، يقف ملقياً نظرة على القرية، تهبّ النسماتُ فتصدر أعشابُ القضب صلصلة ناعمة مثل أجراس صغيرة، يتردد صداها في السفح المقابل، يصعد التيس بتأنٍّ وكأنه لا يود أن يفارق المكان، يقف أعلى الكهف، يصوّب نظرته إلى بطن الوادي، العميق الشاسع، حيث الريح تؤرجح أغصانَ أشجارِ الحبن المزهرة، وحيث يتمايل زور النخل، بينما تطلق أشجار الإثل صفيرها في تلك الساعة من آخر النهار، حيث كانت الشمس قد بدأت في الهبوط تدريجيا لتغيب خلف الجبال الأبعد.

وقف تيسُ الوعل مواجهاً الريح الصاعدة، وقد فرقت لحيتَه الطويلة إلى نصفين، كلّ جزء التصق بناحية من وجهه، وقف مستقبلا القرية، متنسماً روائحها المحمولة في أكناف الريح، وقد ألقت شمسُ الأصيل بأشعتها على وبره، فصار متماهيا وكأنه إحدى الصخور الرخامية الناتئة.

رفع منظاره المقرّب إلى عينيه، حرّك بإصبعه ضابط الرؤية، صوبه على قمم الجبال، نظر ناحية قمة جبل عتّاب، تلك القمّة الأقرب إلى القرية، كانت الدرب التي تقود إلى وادي مقدسي واضحة، شجرة قطف تتمايل أغصانها مع الريح، المكان هاديء، ربما بعض من رشات الهواء الخفيفة، في هذا الوقت تبدأ الريح بترحالها على القمم، نظر ناحية الجبل الطايح، تحرك قليلاً، ثبّت نظره متاملاً الشلال، أثرُ الماء والطحالب أعطى في البعد لوناً داكنا للحجر،صار رأسه والمنظار المثبت على عينيه كأنه آلة واحدة تتحرك يسارا ويمينا،الآن هو يبدو متسمراً باتجاه قمة اخرى.

ثمة شجرة شوع تُلقي بظلالها على قطعة صخرية كانت توحي من بعيد وكأنها حيوان اليف ذلك ان شكلها ولونها البني الفاتح مازها عن جسد الجبل بصخورهِ المتراصة وبلونه شبه الاسود، وكأنه يبحث عن شيء ما،هبط منحدراً تكسو ظهرَه الاعشاب، راقب الأمكنة، تتبع القمم والمنحدرات، الأشجارَ الكبيرةَ شلالاتِ الماء، جبال الغبر المقابلة للجبل الطايح، درسها موضعاً موضعاً، ادار جسده مرّة أخرى،ناحية جبال الرفاص والميابين، ثم توقف عند قمّة السويح، بعد أن كان سيفارقها إلى جبل العسيم، رأى وكأنَّ شيئا هناك على القمّة، ليس ما يشبه تلك الصخرة ذات اللون البني الفاتح فهو يعرف كيف يكون شكل الصخور من بعيد، ولا هو شجرة صغيرة كُسر ظهرها والتوت على نفسها ليس من مثل ذلك ابداً، حرك اصبعه ثانية على مضبط الرؤية، حرّك عجلة التقريب، قرّب الصورة أكثر، ها هي صورة الشيء كاملة وواضحة.

تسمّر مثل صخرة، لم يتحرك منه شيء، حتى نفسه توقف فجأة، شيء يشبه الفرح، يشبه الغبطة في الحصول على شيء ضائع، ها هو يرى مغنمه صورته تملأ عدسة المنظار ها هو تيس الوعل واقفاً هناك بجسده المعافى المتين وبجلده البراق المصفى وبعينيه اللتين ترقبانه، وضع المنظار على تلك العينين.

قرأ فيهما سرّا عجيباً كان قد ضيّعه، تحرك قليلا في جلسته، التفت يميناً ويساراً، لم يكن من أحد في الجوار سوى عنز ترعى خلفه بحذر وبحركة رأس مضطربة، رفع منظاره مرّة أخرى،تدفق الدمُ في عروقه، تنفس بعمق، قرّب حدود الرؤية أكثر، كانت التفاصيل واضحة وجلية، ابتسم وهو يرى تفاصيل التيس، وكأنه يقف بجانبه، قال لنفسه، انه ينظر إليّ، إنه ينتظرني، عرف أنني أبحث عنه، هو هناك هذه المرّة، في قمة جبل السويح، ها هو بعينيه الصغيرتين الجميلتين، ياله من وعل.. يا له من وعل... يا له من وعل.

ثمة طارق على باب البيت، ما لبث ان نادى عليه:

- الشايب صالح اووه الشايب صالح

ينزعج من القادم، اللحظة التي هو فيها أشبه بلحظات صلاة عميقة ومخلصة، ثمة اضطراب وقلق ظهرا على محياه، شعر بأنه استيقظ من حلم سعيد، نظر إلى ساعة يده، إنها تقارب الخامسة والنصف مساء، الشمس على وشك الغروب، قام من مكانه متوتراً، فهو يريد أن ينهي أمره مع الزائر الفجائيّ ليعود إلى منظاره وخلوته مع الوعل.

في تلك اللحظة استدار تيسُ الوعل وقد صفقت له العنزُ كأنها تخبره عن مكانها، ربما شعرت بعدم اكتراثه، توجه ناحيتها، قضم عشبةً صغيرةً بالقرب من موضع قدمها، أسندت رأسَها على ظهره وحكّت بقرنِها الصغير عليه، سرت خطواتُه الى القمة وغاب تاركاً المكان برهة لها، سرعان ما طفقت خلفه، الظلال لحظتها كانت قد كست جسدَ الجبل، ولم يتبقَّ إلا بعضٌ من تلك القمة المدببة.

عاد إلى مكانه مسرعا بعد وقتٍ قضاه مع ضيفه الطارئ العجول الذي رضي بتلك العجلة ولم يكن يحمل لسانه الذي دعاه للدخول سوى كلماتٍ شاحبة توحي كثيراً أن صاحبها يريد ان ينهي اللقاء باسرع وقت.

رفع منظاره وصوبه إلى حيث كان الوعل واقفاً، لكن كل شيء كان قد اختفى تماما، تيس الوعل والعنز التي كانت ترعى، استكشف الأماكن القريبة من القمة ربما كانا في الجوار، لكن بلا فائدة، شعر بضيق يرتفع إلى صدره، قال ما يشبه الأنين الذي حشرت فيه الحروف حتى هو لم يسمع ما قاله بالضبط لكن مفاده كان امتعاضاً واستياء من زائر لئيم أفسد عليه اللقاء بزائرين كريمين طالما انتظر مقدمَهما.

(2)

عدة الصيد جاهزة، حقيبة ممتلئة بكل الأشياء الهامة، دلة مع عبوة قهوة، علب الكبريت، كيس تمر، خلطة بهارات، ما يكفي من الرز والسمك المملح، وقطع لحم المظبي المجفف، ملح، الشايٌ والسكَّر، فناجين، خبزٌ، حذاء مخصص لطلوع الجبال، مصباح يدوي، بطاريات، سكين، قميص وإزار وملابس داخلية، شرشف، ناموسية، منظار، قربة الماء وقبل كل شي البندقية وحزام الطلقات.

أسندتُ الحقيبةَ على الجدار، وعلّقتُ البندقيةَ على الوتد، كنت قد نظفت قصبتها وضعت الزيت على الإبرة والريشة والمخزن، ثم دلكت جسدَها الخشبي بقطعة قماش مدهونة.

بندقيتي من نوع السكتون، اشتريتها منذ عقدين، ثمة الكثير من لديه رغبة في شرائها لكني في كل مرة أردهم أن السكتون ليست للبيع.

انها تفهمني، هي ليست جمادا، أشعر بروحها تسري وبحميميتها تشع مثل هالة القمر في يوم غائم أو مغبر، ولأنني خبرتها طوال هذه السنوات فأنا أدرك مدى رضاها وسخطها مني كلما صوبتها الى هدف. أحيانا أتركها لفترات طويلة معلقة في غرفة النوم، أتركها لعدم تفرغي لها أحيانا، أو لغيابي عن البلد أحيانا أخرى في مهمات متباعدة للسفر، أجلس معها محاولاً منها أن تصيب الهدف لأيام ولكن في كل مرة تحيد التصويب، وقد تطيش الرصاصة بعيداً جداً، حينما يصيبها غضب أكون قد سببته على غير دراية.

أتحدث إليها لتلين، لكن السكتون لا ترضى بسهولة، ولن يغريها تنظيفي ولا حملي لها وأنا أجوب بها القرية والجبال، لكم تركتْ أثراً في لحم كتفي وكم أفشيتُ أهميتَها ومتانتها بين رفاقي، ربما تعرف أن ما أفعله ليس سوى تملقٍ، وكنت ألوم نفسي عندما يطول زعلها وأقول أنه خطأي.

لو تعلمون حالي إذا شعرت برضاها، أعرف أنكم تهزون رؤوسكم الآن، وتضحكون في سركم وتقولون مجنون، لكن ما أقوله هو الصدق، عندما ترضى عني تنفتح الدنيا على أقطارها، ولو كان ما كان من صعوبة، لكن رصاصتها ستقتفي أثر الهدف حتى تستقر في قلبه.

سأخبركم بأمر أنا أقيم علاقة من نوع خاص مع الأشياء التي أقتنيها لاسيما منها السلاح، أتذكر مرةً ان الحاج فريش وهو عائد من الحج جلب لي سكيناً، كنتُ رجوتَه أن يأتني بها من تلك الديار، لم أعطها لأي إنسان، حتى لو طلبها الأعز والأقرب.. لا وألف لا.. إن شاءَ فليطلب أية حاجة، هل سمعتم بأحد أعطى سلاحه؟ انه الغباء الأعظم ان حصل مثل ذلك، فسلاحي ملكي وحدي، هل يستطيع الإنسان أن ينتزع قلبه من صدره ويهبه للناس؟ هل سيبقى حيا بعد ذلك؟ كذلك السلاح، أن تمدَّ يدك ناحيته وتسلمه، يعني أنك خلعتَ قلبك بيدك من مكانه وقررتَ أن تفارق الحياة.

لم يأت اهتمامي بالسلاح عن شكٍّ بمن هم حولي ولست خائفاً من الموت، فأنا أراه كل يوم كامناً في منزلق صخريّ أو على إحدى حواف الجروف السحيقة، لكني لن افرط بسلاحٍ امتلكته.. هو ذلك لا غير، لأنني أشعر بأن روحي فيه.

لقد حدث ان فعلتها مرةً، ولن أكرر فعلتي تلك، عندما بعت بندقيتي الأولى لود فاضل، لم أنم ليلتها وقبل شروق الشمس كنتُ أطرق بابه لأستردها، لكن ود فاضل كان قد ترك القرية وسافر لأشهر برفقة السكتون.

أشعر برغبة في البكاء حين يمر طيف تلك الذكرى.

جلست حينذاك أنتظر الأيام وأعدها حتى يعود، ولا أدري متى يعود، أبلغت أهلي وأهله وكل من يعرفنا في القرية والقرى المجاورة، وبعثت له رسائل مع المسافرين إلى المدينة، وانتظرت بحسرتي وشوقي لكي يعود بها ثانية، وكنت مستعدا أن أدفع له فوق المبلغ الذي اشتراها به مني، لكن وا أسفي على السكتون، لقد عاد ود فاضل بدونها، مرّت ثلاث سنوات بأكملها حتى جاء أحد الجوالين بين القرى، وهو ينادي من حارة إلى أخرى:

- تفق، تفق، من يبى يشتري تفق، سكتون جرمني أصلي، من يدفع زيادة، تفق تفق، سكتون سكتون..

جاء به الي ود جعروف وقال:

- لاقيلك تفق ما يتعوض..

كان شكل البائع مريباً، قصيرَ القامة نحيفاً، شعر رأسه يصل إلى رقبته معقودا في ضفائر صغيرة، قال ود جعروف..

- هذا سنان من بلاد حدرا.. يبيع تفاقه ويترزق..

يومها أخذت عدتي ودخلت الوادي، جلست هناك منذ الصباح وحتى غروب الشمس مع السكتون، فككتها قطعة قطعة، ونظفت كل جزء فيها، شعرت بحرارة روحها، نعم روحها تتشابه مع روحي، ومنذ ذاك، ما بعت أية حاجة توغلت في روحي حتى الأشياء التي تنتهي وتتعطل، فهي هناك موجودة في مخزن البيت، لا اتخلص منها بأي حال، يكفي أن أدخل هناك، لتنفلت الأيام الماضية من سجنها وتعود معها كي أتذكر ما كان.

كل شيء له ذاكرة كل شيء له روح كيف يتخلص الانسان من ذاكرة الروح وتهون عليه .

أنا مغرم بتسمية أشيائي أسماء قريبة على قلبي، فبندقيتي اسمها عز، وسكيني قطّاعة، ومحزم الرصاص شدّاد، وحقيبة الظهر بنت الريح، ومنظاري المقرب عين الصقر، وحذائي الصعب، وفي بعض الأوقات أتحدث إلى إحداها كما أتحدث إلى صاحبي، لكنني كثيرُ الحديث مع حذائي وبندقيتي، وأحيانا أدير حديثاً عصبياً مع منظاري الذي يخذلني عندما أسمع تدحرج الحجارة من مكان في الأعالي، فأسرع في وضعه على عينيّ لكي أرقب القنيصة، وعندما تفلت من مدى نظري في اللحظة الأخيرة، أجدني ألوم عين الصقر واستهزئ به:

– انته عين صقر؟ حشاها عين الصقر لكن قول عين بعوضه، ساعة وأنا أدور وألف وما أشوف شيء..

وكلما أغلظت لأشيائي القول أجدها تنصاع للمهمات في المرات المقبلة.

سأذهب وحدي، الجبل مرتعي الآمن، خبرت كلَّ شقوقه وأغواره، لست ابن البارحة، فقد قضيت من عمري اعواماً كثيرة في هذه الجبال حتى بت أعرف كلَّ شجرة فيها وكل صخرة.

لبست حذائي، عقدت خيوطه بعد أن تأكدت بأن كل شيء على ما يرام، هو ليس بالضيق ولا بالواسع، فالمشي في الجبل يحتاج إلى كثير من المران والممارسة ولابد أن يكون الحذاء مناسبا للطلوع والهبوط، لذلك بحثت كثيراً في مراكز التسوق حتى وجدت الصعب، ثمة أسنانٌ صغيرة في أسفله تعلق في السطوح الصخرية، ويحمي القدمَ من الانزلاق ومن دخول الحصى إلى الداخل.

أقفُ للحظات، أعيد تذكر الأشياء، أتذكر مواقعها في الحقيبة خوف انني نسيت ما تتطلبه رحلتي، أمدُّ يدي إلى البندقية أعلقها على كتفي وأمضي صوب الجبال.

الحارة غارقة في الصمت، كائناتها نامت منذ أمد، البشر وحيواناتهم، ثمة ديك يصيح في البعيد، الفجر صار وشيكاً، عليَّ مغادرة القرية قبل أن يستيقظ الناس، لا أريد لأحدٍ أن يراني على هذه الهيئة، أدرك تماما أن من الخطورة أن تصادف من لا تثق بصمته، لذلك فهذا الوقت المناسب تماماً لكي أقطع طرقات القرية دون الاصطدام بأحد.

تغيب ملامح القرية خلفي بين التواءات الوادي، العتمة تنقشع تدريجيا وليس ثمة سوى بقايا صوت خافت لأحد الديكة ما زال يضرب طبلة اذني.

أصعد درب العقبة مختصرا المسافة إلى جهة الوادي متجاوزا منحنياته الدائرية، فقليل من الجهد يكفي لأجد نفسي خارج التغطية هذه المرة، ليس فقط لهاتفي الجوال، بل لي أنا أيضا، فمن هنا، من هذه النقطة في الوادي والتي تبعد ما يقارب خمسة كيلومترات عن القرية، أكون قد دخلت عالم الغياب، عالم الصخر العظيم.

حانت صلاة الفجر في قمة العقبة، تتداخل الأذانات من مساجد القرية، وتصلني مختلفةً بسبب البعد وجودة مكبر الصوت ودرجة ارتفاعه، أقف للحظات. أتبين أصوات المؤذنين، الشايب عمران بصوتهِ المميز وأدائهِ أيضاً الذي لا يشبهه أداء، ثمة صوتٌ خشن لم استوضحه كثيراً، حاولت أن أخمنَ صاحبه ولكني لم استطع، ومن البعيد في أقصى القرية تجيء رخامة نبرة البنجالي يوسف بأذانه العجيب والطويل، لا تخطؤه أذني، البنجالي يوسف، العامل الذي يشتغل في مزرعة التاجر الكبير محفوظ.

أقف قليلا لأتأمل المكان، من هنا مشيت أول مرة ذاهباً إلى العين، هذه عقبة العين، العين التي تنبع من تحت الصخور، العين الساخنة، إن أثرَ الدهشة باق حتى الآن وأنا أرى فقاعات الهواء تخرج من باطن العين.

من هنا جئتُ مع الزائرين الغرباء الذين مرّوا على أبي ليدلهم على العين،

وبالرغم من أنَّه وصفَ لهم المكان إلا أنهم طلبوا منه أن يرافقهم:

- ما نعرفها وانت ود لبلاد، وباغينك معنا..

أتذكرهم جيدا، عائلة كبيرة، من مختلف الأعمار، أطفال وكبار، معهم رجل ذو لحية بيضاء طويلة يحمل على كتفه كبشاً صغيراً، وكان لديهم حماراً حمّلوا عليه أشياءهم.

كان النسوةُ يمسكن بامرأة مسنة عمياء ويقدنها، طلب أبي منهم أن يتركوها في بيتنا مع أمي ولكنها رفضت، أخبره أحدهم بأنها نذرت أن تصل إلى العين وأن تذبح لها كبشا عندما يعود ولدها من غربتهِ، أدركتُ حينها انا طفل السابعة أن سبب مجيء هؤلاء الغرباء هي هذه المرأة.

اقترح أبي عليهم أن يحملوها على ظهر الحمار، ولكنها رفضت ايضا:

- أنا ناذرة أمشي علين العين.

تفهّم أبي نذورها ومشينا معهم، قال لي غامزاً:

- خلا تاكل لك لحمة طرية.

من فرحتي ذلك اليوم لم ألبس حذائي، لم يكن الحذاء مهما، لقد تعودت على المشي حافيا في القرية، كانت أمي تلزمني أن ألبس حذائي حين نذهب الى القرية المجاورة حيث يقيم أقرباء لنا هناك، أو اثناء مرافقة ابي إلى السوق.

هنا في هذه القمة استراحت العائلة بعد عناء، كنت أول مرة أصعد عقبة العين، كنت أراها كبيرة، لكنها الآن لا تساوي شيئاً، هنا جلست المرأة العمياء لتستريح، سألت أبي عن المسافة المتبقية فأخبرها بأننا قد اقتربنا، استراحت العائلة قليلا، ثم بدأوا يهبطون المنحدر رويداً رويداً حذر الانزلاق وجل اهتمامهم بالمرأة العجوز، كان أحدهم ينظر إليها بغيظ، هبط قبلهم ووقف

ينتظرهم أسفل المنحدر، عندما مررت بالقرب منه، كان يتمتم مع نفسه:

- حد ينذر هذا النذر يا ناس ؟

أهبط العقبة ناحية الوادي، أسمع هديرَ الماء بين الحصى حتى يصل إلى القرية، أقطع المسافة في دقائق ثم أضع الحقيبة جانبا وأسند فوقها البندقية، وأبدأ الوضوء في تلك الرملة الناعمة التي جمعتها تيارات الماء القادمة من الأعالي بعد هطول المطر وتدفق الأودية.

للصلاة طعم آخر بين الجبال، في حضرة هذا السكون العميق الذي لا يكدره صوت إنسان، ولم تلوثه الحضارة بعد، في حضرة هذا الغياب الأبدي، نفسك عارية من كل ما تلبسته هناك، خشوع يتفتح كرائحة زهور السدر العبقة في الوادي في هذا الموسم، يسيل مع جدول الماء بين الحصى ويجري في الجسد مع الدم.

كثيرة هي أماكن الصلاة هنا، فليست هناك ضفة أو براح صغير إلا وتجد عليه مصلى صنعه شخص ما، فقليل من الرمل الناعم وحجارة مصفوفة على هيئة قوس يعني ان شخصا صلى في هذا المكان فقوس الحجارة المصفوفة هو محراب القبلة، وثمة اكثر من محراب حجري هنا الصلاة في الجبال ليس لها مكان معين، كل الأرض هنا جاهزة للصلاة، حيث المكان ممتلئ بتلك الروحانية التي تدفع النفس بلطف للوقوف خاشعة بين يدي الله، خالقها وخالق هذا العالم الصخري العظيم.

المصلى أحيانا يكون معروفا لأناس بعينهم، يقطعون المسافات لينعموا بصلاة كاملة، يقيمون هنا في هذا الغياب لأيام وأحيانا لأسابيع ليس لديهم من شيء سوى الاعتكاف والتعبد، ثم يعودون إلى قراهم، مكملين حياتهم التي تركوها قبل اعتكافهم.

وثمة أكثر من مصلى يأتي اليه اناس غرباء ليس لهم جنس بعينه او من اية

خلقة هم فلم ير احد لهم وجهاً انهم يأتون ويقفون امام محاريبهم يتعبدون وكل ما يمكن رؤيته منهم ربما زوايا من تلك الهيئة الغريبة، سيختفون لو ادركوا ان ثمة من يريد رصد وجودهم وكشفهم.

التقيتُ بأحدِهم، كنت حينذاك في رحلة صيد مثل هذه صعدت قمة جبل الريان كان الغروب قد مد جنحه الشفيف توضأت ودخلت الى مصلى حالما انتهيت من صلاتي طاف بي نعاس ليس ذلك الذي عادة ما يمتصني نومه حتى الفجر بل هي غفوة قلت آخذها ثم أهيء مكانا لمنامي العميق وبينما أنا بين النوم واليقظة احسست بخطوات شخص ما قربت مني وقفت خارج المصلى، سمعت همسه وتمتمه، فتحت عينيّ، ضوء القمر كان ساطعا حتى أنني استطعت أن أرى تفاصيل الشقوق في ركن الجبل، وأرى أشجار القفص والتوت، قمت من رقدتي، تلفت يمينا ويسارا، كانت الخطوات قد ابتعدت وما رأيت شيئاً، لمت نفسي على رقدتي، فلقد جاء العابد ليصلي فوجدني محتلا لمصلاه، لكنه سيعود، سوف أنام في مرقدي الذي هيأته ولن أشعر به هذه المرّة.

أجدني محظوظا، فليس كل من جاء إلى هنا قُدِّر له أن يصادف عابدا من العبّاد، لقد خصَّ الله هؤلاء الناس بكرامات فهم يعيشون على عبادته مختفين عن الأنظار، لكن بعض كبار السنّ، كانوا يحكون حكاياتهم مع العبّاد، كلما عادوا إلى ذكرياتهم، أو كلما فتق أحدهم قربة الحكايات، ليقول أنه صادف عابداً في رحلته، وكلهم يقولون نفس الكلام..

– ما قدرت أشوف وجهه، كان واقف يصلي في الظلام ويوم قربت منه اختفى.

لكنهم يتفقون على صفات هيئة هؤلاء العبّاد، رجال طوال القامة بلحية بيضاء كثيفة وطويلة، وبثياب وعمامة بيضاء تستطيع أن ترى ظهورهم من بعيد، سألت مرّة عمي الشايب محمد بن حمود، عن تفسيره لهؤلاء العبّاد:

– خلق من خلق الله هو وحده يعلمها، يمكن إنس يمكن جنّ، الدنيا فيها أشياء واجد مخفيّة.

السكينة تملأ المكانَ وتتشبع بها نفسي، يا رب أنا المخلوقُ الضئيل الذي لا يساوي حصاة في هذا الوادي العظيم أقف وحدي دون رياء وأصلي لك.

بعد الصلاة صنعت موقدا لدلة القهوة، ثلاث حصوات متقاربة في الحجم، قمت من مكاني باحثا عن بعض الحطب، ومن نبتة يابسة ذات أعواد دقيقة أخذت قبضة ثم أشعلت النار، أكلت النار الأعواد الدقيقة، ألقمتها أكثر، فسطع اللهب.

فاحت رائحة القهوة ملأت ارجاء المكان، بالامكان أن تشم رائحة النار أو القهوة من بعيد لتعرف أن بعضهم قد حضر قبلك إلى هنا، أخرجت قبضة من التمر، أكلت التمرات وشربت القهوة بعدها، شربت خمسة فناجين متتالية، جمعت عدتي، ثم صعدت النتوء الصخريّ المطلّ على العين.

ما تزال العين كما كانت، تنبع من تحت الجبل، قاذفة بالكبريت الأبيض من باطن الأرض ثم يتكلس على ضفاف الوادي.

وصلنا انا وأبي والرجل الذي يحمل الكبش على كتفه الى العين أولاً، وجلسنا ننتظر الآخرين في ظل الكهف الذي نحتته المياه قريبا من العين، كهف العين هذا، لا مكان بالقرب من العين يحمينا من شمس الظهيرة سواه، فهنا الجبال عالية جدا، فلا شجرَ ولا ركناً صخريّاً يقي الزائرين من وهج الشمس، وجرت العادة القديمة أن يطبخ لمن يطرق المكان غداء على جانب هذا الكهف، ربط الرجل كبشه على صخرة بالجوار، بينما أشعل أبي النار ليصنع القهوة للقادمين. وصل بقية الضيوف، بعد مشقة في رعاية العجوز العمياء، الان سيتم ذبح الكبش عند قدميها تحقيقا لنذرها.

ماء العين يجري من تلك المنطقة هبوطاً حتى يصل إلى القرية مُرّا بسبب

الكبريت المتدفق معه، كنت أريد أن أشرب، أخذت جرعة ثم بصقتها.

دلني أبي على صخرة صغيرة على يمين الكهف تتجمع تحتها مياه صافية ليست كمثل تلك التي بالوادي، عندما ارتويت ركضت صوبَ العين، لأول مرة أقف على صخرة الذبح وأنا أنظر صوب فقاعات الهواء المتصاعدة من البركة العميقة.

أبي حذرني أن لا أقفز في الماء لأن العين ستأخذ من يسبح فيها وستسحبه إلى تحت الصخرة، سمعت هذه الخرافة بطرق شتى عن العين، وعن قدرتها على سحب من يسبح فيها انها ترتبط بنهريّ دجلة والفرات في العراق، ومن تأخذه غريقاً ستطفو جثته هناك.

حينها صدقت تلك الحكايات، لكنني عندما كبرت قفزت في البركة الساخنة كم استمتعت بمائها. ثمة مأرب خلف تلك الحكاية انهم يخيفون من يريد السباحة هناك حتى لا تتلوث العين، لأن الناس في قريتنا لا يشربون إلا من تلك المياه بعد ان تكون قد تنقت طبيعيا اثناء مرورها بين الحصى والرمل لتصل الى قراهم عذبة وخالية من الشوائب والكبريت.

وقفت المرأة العجوز أخيراً على صخرة الذبح، مدد الرجل الكبش عند قدم العجوز، وذبحه، فار الدم من أوردته المتوترة خلف حنجرته حتى ملأ المكان، بينما أقدامه الصغيرة التي ترفس لم تستطع الافلات من قبضة أبي المحكمة، وكانت العجوز تتمتم بالأدعية وتتلمس الصخرة وترش عليها من مياه العين.

سلخ الرجل إهاب الكبش بمساعدة أبي، ثم رمى بعضا من اللحم حواليّ العين، عرف ابي مغزى دهشتي،

– هذا نصيب أهلنا الصالحين من الذبيحة، هم يسكنوا تحت الأرض ما تشوفهم، لكن لازم نرضيهم، لأنهم لو زعلوا يجيبوا المصايب.

جلست أتخيل هؤلاء الصالحين الذين لا يُرون بالعين، ربما هم الآن تحت الصخرة، سوف يخرجون فور مغادرتنا للمكان ويأكلون ما وضع لهم ويلعقون دم الذبيحة المتخثر، عندما ذهب الجميع ليستظلوا بالكهف، جريت خلفهم، خفت أن يخرج عليّ أهلنا الصالحون ويأخذونني معهم.

بعد الغداء عاد الجميع ثانية في ذات الدرب إلى القرية، لم أنتظر هذه المرّة مع الناس الذين يمشون رويدا مع المرأة العجوز، انطلقت مسرعا مع أبي، صعدنا العقبة وذهبنا إلى البيت، كنت أريد أن أصل لأحكي لأخوتي الصغار ما رأيت.

(3)

إنه الخريف، الظلال والشمس يقولان هذا، ظلال الجبال المستلقية بنعومة على ضفاف الوديان، والشمس التي أصبحت أقل قسوة من ذي قبل، صار النسيم وهو يسرح بين الفجاج يحاول إغرائي بالنوم والكسل، لكن الدرب طويلة وشاقة وعليّ أن أقطع تلك الالتواءات الممتدة مع الوادي، عشرة التواءات طويلة تملؤها بركُ مياه عميقةٍ وصخورٌ ملساء وثمة طحالب تعيق المشي وتزيد من خطورة الانزلاق، لم أصعد الجبال منذ فترة، لذا أشعر أنني رخو وصدري يضيق، صعود الجبل كأنه يغسل الجسد من الداخل يخرج العرق محملا بالدهون ليرطب قميصي، الشحوم التي تتكدس لا دواء ولا علاج لها إلا هذه الدروب الجبلية وهذه المنحدرات التي تشعر وأنت ترتقيها وكأن جسدك ذاته منحدرات وقيعان ووديان تهطل كلها بفعل مطر بداخلك، القلب يدق بشدة كما يفعل الرعد تماما، ورئتاك تنفثان الهواء وتسحبانه مثل ريح الأعاصير، أما أعضاؤك فهي الشغوف والشراج التي ينحدر منها الماء جارفا ومتعكرا بفعل ما يختلط به من بقايا يمر عليها، إنها معجزة الله.

في السنة الماضية أخذت عدتي كما أنا الآن، ذهب معي مسعود، جئنا في نفس الدرب، وقررنا عدم التوقف إلا بعد أن تنتهي هذه الالتواءات الطويلة والبغيضة من الوادي، كنت أحمل حقيبتي الثقيلة وبندقيتي، وكان مسعود يحمل ثقلاً ليس أخف مما أحمل بل ربما أكثر بقليل بعد أن راق له كيس التمر المكنوز رفعه ووضعه في حمله.

ظللنا نمشي بين الشقوق ونصعد النتوءات الصخرية على الضفاف متنقلين بين ضفة وأخرى، ومع أننا كنا في حذر شديد إلا أن مسعود انزلقت قدمه بعد ان حاول تثبيتها على صخرة مدهونة بالطحالب، لم يستطع أن يتوازن فسقط في مياه البركة الباردة العميقة.

خلع مسعود ملابسه وعصرها ثم فرشها على الأرض بعد أن وضع عليها بعض الحصى حتى لا تأخذها الريح وتعيدها الى مياه العين، كانت فرائصه ترتعد من الريح الباردة والبلل وكانت الشمس لم تزل خلف القمم هكذا هو حالها في مثل هذا الوقت من كل عام.

هنالك دروب كثيرة في الجبل، دروب تؤدي بك إلى وجهات مختلفة وإلى قمم أخرى، دروب تعيدك للوراء مرة أخرى ودروب أخرى تخرجك إلى أماكن بعيدة لم تكن تنوي الذهاب إليها، لذلك على المرء أن يعرف كل درب وإلى أين يذهب و أين ينتهي. لكني لا اعرف غير هذه الدرب هذا لو كنت أريد الذهاب إلى أماكن أخرى، لكنني أقصد تلك القمة بالذات، ليس لدي هدفٌ غيرها، لابد لي أن أصل قبل الظهيرة إلى هناك، حتى أستطيع الصعود إليها والعودة قبل الغروب، فالنهار قصير بالكاد الاستفادة من لهاث شمسه التي ستطفئ محركاتها مبكرا وستكون ظلال المساء غامقة وكئيبة، والريح التي تهبُّ من الوادي سوف تعوي وهي تصطدم بالحجر وبأشجار العسبق والشوع كما تعوي الذئاب.

قبل خمسين سنة من الآن، جئت مع أبي، كنت في الحادية عشرة من العمر، لم أكن أحمل بندقية ولا حقيبة، كنا نقصد مكانا آخر في الوادي، كان لدينا حمار يحمل أشياءنا، وحين نعود سيتربع على ظهره خرجان من حشائش الجبل، قرر أبي الصعود إلى القمة وقال لي خذ الحمار واتجه من هنا، مشيرا إلى درب جبليّ وإلى عقبة تهبط إلى الجانب الآخر من الوادي مختصرة الالتواءات الكثيرة،

عقبة السخيخيمة هذا هو الاسم الذي اطلق عليها من قبل الرجال القديمين.

لكل مكان في الجبال اسم، لم يترك أجدادنا الأمكنة دون تسميتها، فهذا الوادي الذي مشيته لأول مرة عندما كنت صغيرا، في تلك الرحلة الأولى لي هو وادي قعبت، الوادي الرأسي الذي يخرج على أولى القرى من قرى وادي الطائيين، يخرج على قرية مس، بل يخرج على أولى مزارع النخيل التي اطلق عليها الاسم ذاته.

كان أبي يريد الوصول بنا إلى خب الغافة، ذلك الوادي البعيد، ولكن الوصول إليه سهل، فقط عليّ أن أصعد عقبة السخيخيمة ثم أتجه إلى أعلى الوادي حتى أصل.

هناك وديان وروافد كثيرة تصب في وادي قعبت، لكن أبي لن يتركني أتيه وأدخل إلى واد آخر، لذلك كان وصفه دقيقا.

أخبرني عندما أهبط من العقبة، عليَّ أن أمشي في الوادي صعودا عكس التيار، وبعد التواءات سوف يظهر على يساري واد عميق:

- لا تدخله، وأمشي كما مبونك طالع طالع.

ظل أبي يصف لي المكان بدقة، الأشجار الصخور، العلامات الموضوعة في الطريق، الوديان، حتى وصلت إلى حيث يود مني أن أنتظره، حيث يلتقي واديان كبيران نبتت سدرة كبيرة بينهما، هنالك ربطت الحمار وأنزلت الحمولة وبدأت في عمل القهوة.

كنت موقناً أن ما فعله أبي هو الصواب، بل كنت مطمئنا إلى أبعد الحدود ومقتنعا انه يرقبني من على إحدى القمم القريبة من حين الى آخر.

حين تكون وحدك فأنت سيد الموقف، لا ينتقدك أحد على ما تفعله، لن ترسخ في ذاكرتك أخطاؤك التي سيتسابق الآخرون لإظهارها، نحن القرويين نموت حباً في نشر الأخطاء، وفي اشاعة الفضائح، لا تفش سرك

لأحد لأنه سيُفشي وسينتشر في أرجاء القرية بسرعة فائقة. جربت أن أصلح الموقد وأن أشعل النار، اشتعلت قليلا وعندما وضعت دلة القهوة على الموقد انطفأت، نفخت في الموقد بزفير حاد فتكاثر الدخان، لفتني سحابة منه سعلت ودمعت عيناي، ابتعدت عن الموقد حتى هدأت من نوبة السعال، عدت فأشعلت النار ثانية، حين صار الماء يغلي وضعت فنجانين من مسحوق البنّ في الدلة، هذا كثير قلت ولابد لي أن أقتصد.

تأخر أبي ذلك اليوم، انتصف النهار ولم يأت، أحسست بالجوع أخرجت من عدة الرحلة سمكاً مملحا ومكملاته البصل والحماض صنعتُ موقداً ووضعت في القدر الماء وشرائح السمك وأشعلت النار ستكون وجبة شهية وغنية حساء السمك مع العصير الحامض الحار.

من ثمار أشجار الليمون التي تطل على الوادي، حيث يمكن لاوراقها وأغصانها المتشابكة الداكنة ان تخفي مسكناً عن النظر، صنعت أمي عصير الليمون المملح مع اضافة قطع الفلفل الحراق، كنا قد قطفنا كلَّ الثمار في نهاية الصيف وجمعناها في كومةٍ واحدة، تقسم أمي الثمار حسب حاجتنا، منها ما يعصر لتذهب قشوره علفاً للأبقار بعد خلطه بالتمر واللبن، وبعضُ تلك الثمار يوضع تحت شمس اغسطس الحارقة ليجف لكي تسهل عملية تخزينه اما القسم الثالث فهو نصيب الجيران وفقراء القرية.

موسم قطاف الليمون كان مثل العيد، تتجمع الجارات والجيران لمساعدة بعضهم بعضا، يتجمع الأطفال أيضا للمشاركة، لكن ربما كان يمثل لي ذاكرة أخرى ففي أحد هذه المواسم كانت قد خطفت قلبي الصغير مشاعر حب غير تلك التي اكنها لأمي او لأبي إنها موجة خفقان مختلفة حركها الشعاع المنسكب من عيني سلمى العسليتين، كنت أول مرة أرى إلى عينيها، أول مرة أعرف سحر العين وبريقها الصافي المشحون بتدفقات كأنها توقفت

للتو عن البكاء بل عن الضحك، شيء من هذا ومن ذاك أن لونها العسلي يتموج فيه ماء مضيء شدني إليه بقوة وصرت أسترق اللحظات لأُعيد النظر إلى العينين. أختها الكبيرة كانت تراقب ارتباكي نحوها، همست إلى أمي، ارتبكت أكثر، تظاهرت بالذهاب خلف الشجرة ولملمة الثمار المتساقطة على الأرض، كانت امي وجارتنا تلاحقانني بنظراتهما الضاحكة.

لم يكن بيت سلمى بعيداً عن بيتنا، إنه يقع تحت غافة كبيرة في الجهة المقابلة كنت أمضي إلى هناك للقاء أخيها الذي يصغرني وطالما شاركتنا اللعب

كانت هذه واحدة من محاولاتي لأكون قريباً منها وكأنني شاب وجد فتاة أحلامه، هل ذاك الذي أشعر به مجرد إعجاب طفل بصورة طفلة جميلة لها عينان مختلفتان؟، أم هي بذرة حب ستكبر بعد حين وهل يمكن لطفل بعمري أن يحتوي قلبه بذرة الحب؟ لكن كل شيء سيتغير بعد حين اذ لم تمر سوى ثلاث سنوات حتى رحلت سلمى برفقة عائلتها أخذوا كل أشيائهم وغادروا الى المدينة ومازال منزلهم مقفولا منذ ذلك الحين كنت أحاول ان اصدق ظن امي التي كانت تقول:

- بيرجعوا، هذي بلادهم، محد يروح من عشه وما يرجعله.

لكن العائلة لم تعُد، ظللت أذهب للعب وحدي تحت الغافة، أغمض عينيّ وأتخيلها واقفة خلفي، أشعر أحيانا بهمسها لألتفت وأنكسر بالفراغ.

ويوما بعد يوم، وأنا على تلك الحال، وقليلاً ما كنت أصغي لنداء امي وقت الغداء او حين يقترب الليل بعد ان تكون قد ربطت شياهها في مرابضها في رملة الوادي، وتمرّ من جانبي النسوة وهنّ يحملن فوق رؤوسهن أوقرة القتّ أو الشعير، يمرّ البيادير عائدون من حقولهم، تكتسي قمم الجبال بأشعة الشمس الصفراء متشبثة بما تبقى من ضوء قبل حلول العتمة، حينذاك فقط أعود الى منزلنا .

فجرت ذاكرة الليمون شجناً في نفسي، لم أكن طفلاً حينذاك بل ثمة شعور كان يداهمني هو انني وحيد، كائن حجري انبثق فجأة ليجد نفسه يشارك كائنات الصمت الحجرية حول المكان، أين أنت يا سلمى؟ كنت أرسل لها سؤالا مع تغريدات طائر أبو صريد، أو اقيم حوارا معها أخبرها بما حدث لي في تلك الرحلة.

هي المرة الأولى التي أصنع فيها غداءً بمفردي، أردت ان اضع صورة امام ابي هي انني استطيع فعل اشياء كثيرة وانه يمكن الاعتماد علي في رحلات الصيد، أحضرت ثلاث حصيّات متوسطة الحجم وأوقفتها مقابل بعضها على شكل نجمة، قمت وبحثت في الجوار عن بعض الحطب اليابس، كسرته إلى أعواد صغيرة ووضعته بين الحصى، حاولت أن أشعل النار، كان الحطب يحتاج إلى بعض الأعواد الدقيقة التي تستطيع التقاط النار بسهولة لقمت الموقد عيدانا من عشبة السخبر التي يبست اطرافها بدأت النار تسري في الحطب وتصاعدت شيئا فشيئا السنة اللهب، وضعت القدر فوق الموقد وبدأت في تسخين الماء، وعندما وصل أبي كان الغداء جاهزاً، لكن ابي شرب قهوته اولاً وبنظرة انتقاد ودود قال:

- خفف البن المرة الجاية.

شرب بعد القهوة جرعات من ماء القربة البارد، قمت وأحضرت الغداء، أرزا أبيض مع المالح.

ذهب أبي إلى القمة وتأخر هناك، ثم عاد خالي الوفاض، لم يجد شيئا، قال لي:

- رحت وجيت ما لقيت شي ولا سمعت شي، بدتني التعبة.

كان متعبا من المشي، لذلك بعد أن أكلنا غداءنا استلقى تحت السدرة وضع رأسه على حجر صغير وغرق في قيلولته.

قبل مجيء أبي، كان قد مرّ بي ثلاثة رجال، متمنطقين بأسلحتهم وأحزمة الرصاص تتوسط خواصرهم، وحين رأوني تعجبوا كيف لطفل بلغ الحادية عشرة توا في ذلك الوادي المقفر وحيداً يجلس تحت تلك السدرة، قال لي أحدهم مازحاً وهو يصرخ:

- جن وا إنس ؟
- إنس.
- مو تسوي هنا؟
- أحرص أبوي.
- ود من انته؟.
- ود شيخان بن حمود.
- لا حول ولا قوة إلا بالله.. هذا شيخان مافيه عقل، حد يرسل ولد صغير فه البقعة وحده وحيد؟

كنت أريد أن أقول له أنني لست صغيرا، لكنني تذكرت كلام أبي:

لا تناقش ولا ترد على رجّال أكبر منك، احترم كلامه حتى لو غلطان.

لذلك سكت، حمّلوني سلامهم لأبي ومضوا في طريقهم داخلين إلى وادي خب الغافة.

أبي صياد ماهر، من يكون برفقته لا يجوع، ففي تلك الرحلة، قام إلى الماء الجاري، وراح يختار بعناية صخوراً مسطحة، ثم وضعها في أماكن راكدة بعد أن حفر تحتها ما يشبه الأنفاق الصغيرة، كان يسمي طريقته تلك محقصة، ثم يقوم بالقاء بعض الحجارة في البركة حتى يثير الصد ويسرع بالانضمام هربا تحت المحقصة، ثم يأخذ حجراً كبيراً ويضرب به على الصخرة المسطحة، ليموت تحتها السمك، ثم نقوم بلملمته ووضعه في إناء، ثم نصنع محقصة

أخرى حينذاك كان أبي قد ملح السمك الصغير الذي ملأ الاناء ثم لفه بخوص النخل، ثم أشعل نارا ووضع اللفائف في وسطها كان عشاء لذيذا سمك مشوي مع البصل والخبز.

في منتصف الليل استيقظنا على صوت خطوات حيوان ما قريبة منا، أخذ ابي قبضة من الحصى ورمى بها ناحية الصوت، فهرعت الخطى بعيداً، قال ابي ضع حذاءك ودسه الى جانبك ربما يكون ذلك ثعلب جائع، الثعالب تشدها رائحة الطعام ورائحة البشر، تبحث عن شيء ما تسد به جوعها، وعندما لا تجد ما تأخذه قد تسرق الأحذية وتلوكها حتى تتلف تماما، قمت فزعا من الفكرة، كلا، ليس الحذاء، فالمكان هنا لا يطاق بدون حذاء، ففي هذا الوقت من السنة الحجارة ساخنة جدا .

عثرت على حذائي مكانه، أخذته ووضعته تحت رأسي، وإلى الآن أفعل ذات الأمر، قام أبي من رقدته، فتح حقيبته وأخرج حديدة الفخ:

– أروح أشبك، اللحم على الريوق ماشي أحسن منه.

أخذ الفخ ومشى حتى اختفى عند الالتواء الأول، حفر حفرة صغيرة ووضع الفخ، نثر حوله بعض فتات سمك الصدّ المتبقي من العشاء وبعض العومة الجافة التي أحضرناها معنا، ثم عاد لينام في مكانه.

غرقت انا في نومة رائعة، استيقظت على صوت أبي وهو يوقظني للصلاة، ثم ذهب إلى مكان الفخ، فوجد ثعلبا قد وقع فيه، كانت حديدة الفخ تطبق على رجل الثعلب وهو يحاول جاهداً الفكاك بلا فائدة، حتى أنهك وسقط على الأرض، تناول أبي هراوة غليظة وضرب بها الثعلب على رأسه ضربات متلاحقة، قبض بيده القوية على فكيّ الحيوان ثم استل سكينه من غمدها وذبحه.

في ذلك الصباح كان فطورنا خبزاً مغموسا في مرق لحم الثعلب، كان اللحم رقيقا مع بعض اللزوجة الجميلة التي زادت من شهيتي، كان الحيوان صغيراً ولحمه طرياً، فلحم الثعالب لذيذ جدا، وأبي خير من يصنع مرقا رائعا منها.

اجتز أبي ذيل الثعلب، شقه بالسكين ثم سكب في الشق ملحا كثيرا، علق الذيل على النخلة القريبة، قال:

- ذكرني، من نرجع نشله هدية حال خوتك.

هذا هو اليوم الثاني لي في الجبال، المكان عميق جدا، فالشمس تشرق متأخرة، تصل إلى القاع في الظهيرة، بعد أن تنحسر الظلال الطويلة شيئا فشيئا، فإذا توسطت كبد السماء تتوقف الحركة، لا حيوان ولا حشرة تستطيع أن تخرج في ذلك الوقت، توقفنا تحت إحدى الأشجار، حتى ساعة العصر.

كان القناصون الذين مرّوا علينا البارحة قد علقوا بنادقهم ومتاعهم على الغافة، اثنان منهم يتجاذبان أطراف الحديث ويشربان القهوة فنجانا تلو الفنجان، اقتربنا منهما، سألهم أبي:

- أشوف التفاقه معلقات؟.

- خبَرْهِن مع سليم بن خاطر..

كان هناك سبب مهم في تعليق البنادق، فليس من عادة القناصين أن يعلقوا بنادقهم ويذهبوا بعيدا عنها، فهم يدركون تماما بأن البندقية تحملها في كل حين و تحتاج إليها في أي وقت، والحسرة كل الحسرة أن تنسى أو تتكاسل في حملها، فما تصادفه من اهداف دسمة سيجعلك تضرب أخماسا بأسداس من اللائمة.

كان سليم يمشي وهو منكسٌ رأسه، حتى إذا اقترب ناحيتنا توقف فجأة كمن توجس من وجود أحد غير مرغوب فيه، لكن أبي ناداه:

- تعال، تعال، باغنك تخبرني مو سبب معلق تفقك في الغافة ؟..

هزّ رأسه وتقدم ناحيتنا، سلم علينا ثم تناول بندقيته وقال لأبي:

- باغنك تتفل عليها.
- لكني ما أعرف أتفل.
- تعرف تخرّج تفالك؟.

ضحك أبي، فهم ما يدور في خلد الرجل، تناول البندقية وبدأ يتمتم عليها بكلمات غير مسموعة، ثم بصق عليها من لعابه، سأله عن السبب فأخبره فذكر سليم ان نحسا أصابهم وراح يسرد لنا قصة ذاك النحس الذي جعل بنادقهم كلها تصيبها علة .

في الليلة الماضية وقبيل الغروب، يحدثنا سليم بن خاطر، كنا قد أعددنا المكان للمبيت، سمعنا تدحرج الحصى يأتي من الأعلى، شاهدنا تيس الوعل ينزل إلى الوادي ناحيتنا، ليس أي وعل يا شيخان، كان تيسا عظيما بقرنين معقوفين، نزل ناحيتنا ووقف بالقرب منا على صخرة كبيرة، تناولت بندقيتي سريعا وصوبت ناحيته، وعندما ضغطت على الزناد لم تنطلق الطلقة أبدا، كانت قد تنفست بالداخل وانفجرت، قلت يحدث هذا في بعض الأحيان، تناول حمدان بن سويد بندقيته أيضا، تناول الرفاق الآخرون بنادقهم، صوبنا ناحية الوعل، والوعل يقف أعلى الصخرة، رميت مرة أخرى ولم تخرج الرصاصة، رمى حمدان وانفجرت الطلقة بالداخل وتطايرت شظاياها في وجهه، وخرج دخان قاتم من مؤخرة البندقية، حاولنا مرات ومرات والوعل يقفز على الصخرة ثم يقفز منها إلى الجبل، وكأنه يلعب على أصوات الطلقات الكاذبة، ثم يأسنا ووضعنا البنادق على الأرض، بينما ظل الوعل في مكانه حتى حجبته العتمة.

أن يحدث هذا في بندقية واحدة مقبول وربما يحدث كثيرا ولكن ما حصل غريب ولا يعقل، لقد بتّ بحسرتي ياشيخان وأنا أرقب تيس الوعل بضخامته يقف على مقربة منا ولا حول لنا فيه ولا قوة.

لكنني أُدركُ من وراء هذه الفعلة، إنه نحس ابن خالتي حامد بن رزيق لقد أراد أن يأتي معنا ورفضنا، هل تعرف لقد حدث لنا ما هو أسوأ، فبعد أن يأسنا من القنص ومن بنادقنا، وبعد أن علقناها كما ترى في الغافة، توجهنا صاعدين الوادي، وجدنا أكثر من ثلاثة مواضع للنحل الذي يستقي ويشرب من الماء، وأنا أؤكد لك بأنني أرى النحل وهو يطير وأراه وهو يهوي في الغار أو في الشجرة وعندما أذهب إلى حيث راقبته يحط لا أجد شيئا، صدقني لم يحدث معي مثل هذا من قبل، لقد أطلق علينا تعويذة النحس وها نحن جميعا، لا نحن اصطدنا الوعل ولا حصلنا على العسل. ولولا معرفتي بعلمك وبراعتك في كسر النحس لما قدمت إليك بندقيتي يا شيخان.

بعد أن قص سليم بن خاطر حكايته، قال له أبي:

- بتصيد اليوم قنيصتك، لا تهتم.
- هين تبغاني أروح.
- روح أي مكان.
- لا، أريدك انته تدلني.

دلّه أبي إلى وادي ظويبه، وهو واد عميق وصاعد تفضي قمته إلى وادي الجروف، ذهب الرجل في ذات الاتجاه، وجلس الآخرون تحت الغافة، بينما مشيت مع أبي الى حيث الأمكنة التي يأتي إليها النحل ليشرب، كانت العلامات موجودة وراح يراقب وبدأ في مراقبة اتجاهه ومعرفة اتجاهه.

راقب الأول ورأى أين يهوي، صعد صوب الأعلى، وجد العسل يتدلى من غصن شجرة لقم كبيرة، ووجد خلايا في أماكن أخرى، قال:

- لا تخبر حد، من يروحوا بنجي نشلهن..

عدنا إلى المكان حيث المبيت هذه المرّة مع هؤلاء الغرباء الذين لا أعرفهم، والذين أرى وجوههم لأول مرة.

قبيل الغروب، كانت الشمس تودع نهارا جديدا خلف القمم تاركة لنا هذه الجبال بصمتها و لياليها العجيبة، ذلك المساء عاد سليم بن خاطر وقد علق قنيصتين كل واحدة منهما على كتف، بعد أن شق بطنيهما وافرغمها من الاحشاء.

سهر الجميع مع حكايات أناس وأزمنة حديثة وغابرة، كان كل واحد منهم يحكي الحكايات وكانه يحكيها لاول مرة، وكان اللحم على النار.

أتذكر بأن سليم بن خاطر قد أعطانا كتفا كاملا في صبيحة اليوم التالي، قبل أن يستأذن أبي للرحيل هو ورفاقه عائدين إلى قراهم، بعد سنين طويلة، أخبرني حمدان بن سويد بالحكاية، التي بدأت عندما وصل الرجلان اللذان مرّا علينا تحت السدرة في البداية وهما يحملان الوعل، قال: أخبرنا سليم بن خاطر بأننا قابلنا شيخان وولده في الطريق، وسألنا:

- وما عطيتوهم شيء من لحم الوعل؟

وعندما أجبناه بالنفي ضرب كفا على كفّ وبدأ في الوسوسة:

- شيخان ساحر، بتشوفوا وحدكم موه بيستوي...

وحدث ما حدث، وهو لا يستطيع أن يواجه أباك بأنه هو السبب وراء ما حدث لبنادقنا، لذلك اختلق قصة ابن خاله حتى يفك النحس عن بنادقنا، وفي الصباح كان قد قرر أن نذهب، قال لنا في الدرب:

- مكان فيه شيخان أحسن لنا نتركه هو وصيده.

(4)

اجتزت التواءات ردة الروغ، مشيت منحنيات صعبة وطويلة، ذهبت غرباً ثم عدت شرقاً، درت في ذات المكان وحول نقطة واحدة، ولأني قضيت وقتا كبيراً من عمري هنا، فقد خبرت كلَّ شبر، حفظت موضع قدميّ وإلى أين تتجه الدروب.

استرحت تحت ظل السدرة الصغيرة التي علق عليها أحد الشواوي صرّة من القماش دسّ فيها أشياءه.. الوقت ما زال مبكرا، الشمس تشرق متأخرة في هذا الوقت من العام، كل الأشجار الجبلية والحشائش بدت وكأنها تلفظ أنفاسها تحت رياح القيظ، شجر العسبق مصفرّ، بينما تتساقط أوراق شجرة القفص ورقة تلو ورقة، السخبر والظفر والقعمل، وكل الأعشاب بانت كأنها أعوادٌ يابسةٌ، النسيم دخل في سباته المفاجئ، والعقبة أمامي طويلة وعالية، نظرت إلى ساعة اليد، ثم تفحصت صوب الأعلى، أحتاج إلى جهد مضاعف للطلوع، رغم أنني مازالت أحتفظ بصحتي البدنية، فقديما كنت أقطع هذه العقبة دون أن تأخذ مني وقتا ولا جهداً، لكني صرت اتوقف مرات عدة لأستريح قبل أن أصل.

منذ تلك الرحلة الأولى بصحبة والدي وأنا أذهب مع القناصين، لم أكن أملك بندقية بعد، كان ذهابي معهم لمساعدتهم في حمل متاع الرحلة أو للبحث عن العسل الجبليّ أحيانا، ولكي لا يشعر أبي بالوحدة.

هي متعة لا توصف، وحب لتلك الأماكن لا ينتهي، فلقد خرج حليب

أمي من مسامات جلدي بين هذه الجبال

في أوقات أُلِحُ على أبي لكي أرافقه ولكنه يأبي ذلك، يقول لي:

- جلس في البيت، وسقي النخيل.

لكنه في أوقات أخرى يقترح عليّ بنفسه:

- مو رايك نشوم؟

لا أعرف متى يود أبي أن أرافقه فهو أحيانا يستهويه، البقاء وحيداً في تلك الوديان لعديد أيام، غالباً ما كان يرجع خالي الوفاض، وقد يترك حماره هناك، متحججا بأنه بطيء في السير، ليعود إليه بعد أيام، ويجده في أحراش الأشجار يأكل من الاعشاب ما يروق له. كان عنتر وهو الاسم الذي اطلقناه على الحمار لا يكل ولا يمل من العمل، يعمل عليه أبي في القرية صباح مساء، وأحيانا يقترضه أحد أبناء عمومته أو جيرانه ليأخذوه معهم، محملين عليه أحمالهم، وكان شرط أبي الوحيد عليهم أن لا يضربوه بالعصيّ حتى لو ركب رأسه ووقف في مكان ما عنداً، نحن الذين عرفناه جيدا يصعب علينا فهم طلباته عندما يقف كالتمثال في وسط الطريق ولا يتحرك قيد أنملة، في مثل هذه الحالة لا يستطيع كائن من كان أن يغير من حالة عنتر العجيبة سوى أبي وثمة عدة طرق يقوم بها لتوجيه عصيانه وجعله يواصل مسيره.

مرّة طلب مني أبي أن آخذ عنتر إلى بيت عمي سيف، كان لعمي تمرٌ عبّأه في ضمائد من السعف على سطح التل أعلى منزله، وكان يريد أن يحمل الضمائد على الحمار ويودعها في مخزن البيت، بيته الذي كان من ثلاث غرف شكلت مربعا بضلع ناقص، كان ذلك الضلع الباحة التي تستخدم للجلوس مساء بعد أن يبرد الهواء، والتي تسهر فيها العائلة وتنام أيضا في ليالي الصيف طلبا للنسيم العليل الذي يهب من الوادي إلى أعلى التل، وفي الصباح قبل أن تشتد الحرارة يجلس الجميع لتناول التمر مع بضعة فناجين من القهوة، ثم يأكلون

الخبز المغموس في اللبن المخيض، والذي تصنعه عويش زوجة عمي، بينما يقبع العريش بمحاذاة الدرب الصاعد إلى أعلى التل، وفيه تتعلق قربة الماء على وتد مركوز في العمود الطيني، وتحتها دائما كانت دلة القهوة وسحلة الفناجين، بينما تتساقط قطرات الماء المتسربة من القربة لتتجمع في السحلة.

قدت عنتر من خطامهِ إلى أن وصلت إلى هناك، أمسك عمي بالخطام وجرّ الحمار صاعدا به التلة

وبعد أن حمّل عليه ضميدتين جرّه نازلاً به ناحية المخزن، أما أنا فجلست هناك في التلة بالقرب من التمر أنتظر عمي ليعود، وبعد لحظات عاد ليحمل ضميدتين أخريتين، ونزل ناحية المخزن، وفي المرة الرابعة اثناء النزول توقف عنتر عن الحركة، حاول عمي أن يشده من خطامه وأن يسحبه ليتحرك إلى الأمام، حاول أن يزحزحه ولكن لا فائدة.

عمّي سيف رجل غضوب، إنهم يلقبونه بالحُمُقْ، يشتعل مثل النار في الهشيم من اللاشيء، ومن أتفه الأسباب تجده يغضب ويقذف بالسباب من لسانه.

عندما باءت محاولاته بالفشل في تحريك الحمار صرخ عليّ غاضبا :

- صالح.. صويلح.

هرعت راكضاً ناحيته، عرفت من نبرةِ صوته وصراخه بأنه غاضب، اقتربت منه، أدركت ما حدث، قال:

- تعال شوف هالبلية قبل ما أنقّع فيه برصاصة بين عيونه..

قلت في نفسي: لا فائدة، فعناد عنتر لا يوصف، ونار الغضب قد اشتعلت في جسد عمي ولم يعد يرى أمامه شيئاً، فقط بدأ يسب ويلعن، سبّ الحمارَ وأمه وأهله وعشيرة الحمير كلها، وسبّ الظهيرة القائظة التي جعلته يلهث من العطش، وأنا أقف جامداً مكاني، خائفاً من ردة فعل عمي وحائراً

في أمر الحمار الذي لا أعرف سبب جموده المفاجئ في وسط المنحدر.

كانت عويش زوجة عمي تقف عند العريش صامتة تراقب المشهد، حاولت أن أسحب الحمار ولكني عجزت عن تحريكه، جاءت عويش ووقفت بالقرب من عنتر، مسحت على وجهه ورأسه، تمتمت بكلام لم أفقهه، بدأت عويش تغني بصوت منخفض، لا أعرف هل كانت تغني للحمار أم أنها كانت تلطف الجو الذي أصبح متوترا بسبب نزق وعصبية زوجها.

عويش امرأة جميلة، لها عينان خضراوان، صفاؤهما عجيب، ولها وجه مدور ومشرق، ملامحها تبدو هادئة، عندما تتحدث لا يكاد يسمع ما تقول، طويلة بعض الشيء، وأحيانا تزيح وقايتها فيظهر شعرها الذهبي اللامع المختلط ببعض الخصلات السود.

هي ابنة خال أبي الذي يسكن في سناو، تزوجت من العم سيف منذ زمن بعيد ولم تنجب له إلا طفلا واحدا مات وهو في السنة الأولى .

أحضرت عويش سطلاً مملوءا بالماء وقدمته للحمار، ركضت وأحضرت أعواد الشعير وتمرا وقدمته له فأكل وشرب بهدوء، بينما انسحب عمي سيف من المكان ودخل إلى العريش لكنه ما زال هادراً لاعنا، وقف الحمار بعد أن تناول وجبته محدقا في شيء ما أمامه، وقف وقتاً طويلاً على هذه الحال، ثم تقدم بنفسه دون أن يسحبه أحد من خطامه، مشى حتى وقف أمام باب المخزن، نادت عويش زوجها فجاء لينزل الضمائد.

من بعيد سمع أبي صراخ العم سيف فجاء، كان كل شيء قد انتهى، وعندما حضر كانت الضمائد كلها أمام باب المخزن، ضحك أبي عندما وصل وهو يخاطب أخاه:

- أيش هناك.
- سلم بسلامة حمارك العنيد، شوية وأخليه يترفس.

ضحك أبي بشدة، وقال له مازحا:

- إنت شي ما يثور لك بدمك، حتى عنتر ؟

العلاقة بين أبي وعمي لا تشبه العلاقة بينه وبين أخوته الآخرين، هنا احترام متبادل ومودة عميقة لم تكدرها الأيام أبدا، بينما علاقة أبي مع إخوته عادة ما تكون متوترة وقد يدخل في زعل عميق وطويل يمتد إلى سنوات أحيانا، لكني لم أسمع ولم أعهد أن حدث بين الاثنين شيء يعكر صفو الوداد بينهما، جلسنا نشرب القهوة، ثم أمرني أبي بأخذ الحمار والعودة به إلى البيت....

عقبة التين، هذه الطريق المختصرة إلى وادي الميابين، طريق صاعد ورأسي، ومثلما صعوده شاق جدا فهبوطه أكثر خطورة، لكنها الطريق الوحيدة التي ستذهب بي إلى قمة جبل السويح، هناك حيث سأتربص بطريدتي الكامنة في إحدى المغاور.

قمت من جلستي، تنفست بعمق، شددت أربطة حذائي، قبضت بندقيتي، نظرت إلى منظارها المقرب، لقد اشتريته منذ زمن، جلبه لي أحد الأصدقاء الضباط الذي كان يسافر كثيراً، أوصيته أن يختاره بعناية، وبعد أن جربت الكثير من المناظير استقرّ اختياري أخيراً عليه، قضيت أسبوعا كاملا لأتأكد من ضبطه وتركيزه على الهدف، كنت أخرج من القرية وأتجه إلى مكان منعزل، هناك أضع أهدافي على صخرة كبيرة، أضع حجارة بيضاء بحجم قبضة اليد على بعد مئتي متر، أصوب عليها طلقاتي وأضبط مؤشر المنظار.

في البداية كانت الرصاصات تتجه يمينا وأحيانا شمالا أو إلى أعلى الهدف أو تحته، فتحتُ دوائر الضبط، حركت شعرة المؤشر قليلا ثم صوبت ثانية، اتفحص الحجارة لأرى أين علقت الرصاصة، وهكذا مرات كثيرة إلى أن ثبت تصويبي وبدأت أسقط الأهداف هدفا بعد آخر.

أعدت الكرة لأتأكد أن المنظار صار ثابتاً على الهدف، وظللت في كل يوم أذهب إلى نفس المكان واعيد ذات المحاولات، كان عليّ أن أتأكد أن كل شيء كما أردت، فأنا أؤمن بأنه ليس للمصادفة مكانٌ في رحلة القنص.

قبل ذلك ذهبت إلى نزوى، اشتريت نوعاً من الطلقات القوية تلك التي تخترق جسد الطريدة لسرعتها، استشرت العديد من معارفي الذين يتشاركون معي في هواية الرماية عن أنواع الرصاص، سألت في سوق نزوى عن الباعة الذين كنت أشتري منهم قديما لكن كثير منهم بدأ في التهرب، إلى أن وجدت ضالتي عند الشايب راشد الطيواني، نظر يمينا وشمالا وسألني:

- من دلك عليّ؟

فأخبرته بأنني قد تعودت الشراء من عنده :

- ما تعرفني عمي راشد؟ أنا صالح بن شيخان، من وادي الطائيين.

نظر في وجهي، أسدل أهدابه محاولا التذكر، حرك مصرّه الأبيض على رأسه، ثم قام من مكانه وأزاح صندوقا معدنيا من وسط الدكان، ثم اقتلع بلاطة وأدخل يده في حفرة هناك، أخرج منها صندوقا مليئا بالرصاص، فتحه أمامي وهو يقول :

- الحذر واجب يا ولدي.

اشتريت منه ووضع الرصاص في كيس أسود، وقال لي :

- توكل على الله، وعن حد يشوفك

ذات مرة ذهبت مع أبي حتى وصلنا وادي خب الشيخ، وهو واد طويل ومرتفع، الهواء بارد في الظهيرة، مكثنا هناك أياما بلا فائدة تذكر، لكن في اليوم الأخير الذي قرر فيه ابي العودة استطاع اقتناص وعلٍ ولذلك غير رأيه، وأ مرني بان أضع الوعل على الحمار والذهاب به الى السوق لبيعه، ثم عاد مرة أخرى للاقتناص.

لم أكن أعرف الدرب التي وصفها لي، لم أطرقها من قبل، لكنه كعادته شرح لي التفاصيل حتى أصل إلى سوق القرية.

كان رأس الوعل يتدلى من كتف الحمار، ومالت قوائمه من الخلف، أحكم أبي رباطه حتى لا يسقط مع الحركة، انحدرت مع الوادي، كنت أمشي أمام الحمار عنتر، ثم أقف ليتقدمني فأمشي خلفه، كان يفهم إشاراتي كلما حاد عن الدرب، فما أن أوجه يدي الى اليمين حتى ينحرف يمينا، أو الى اليسار ليذهب يسارا، حتى وصلت إلى عقبة عالية كان عليّ أن أصعدها، دلني أبي أيضا على أشجار سمر نبتت في مكان منبسط هو الوحيد ولا يشبهه شيئا، لا توجد أشجار سمر كثيرة في هذه الجبال، نظرت أعلى السمر في غرب الوادي، لاحظت علامات الطريق الصاعدة في منحنيات، تلك دربي التي سأسلكها.

كان الوقت باكرا، أخذت الوعل وصعدت العقبة، من قمتها تظهر القرى كبقع خضراء متناثرة، رأيت أيضا سيوحا منبسطة لم أكن أعرف عنها شيئا، فأنا لم أغادر قريتي إلا لهذه الجبال.

شعرت بوحدتي، أن الإنسان كائن وحيد، يولد ويشب ثم يبني بيته ويتزوج وينجب أطفالا لكن يظل وحيدا، خامرني ذلك الشعور وأنا على قمة العقبة، رأيت القرية في الأسفل، الأصوات المختلطة التي تصل إلى مسمعي كانت لا تعني لي شيئا، شعرت بأنني كائن متوحش يحب قمم الجبال، وإلا كيف أفسر تلك المتعة التي احتلتني، ولماذا بعد تلك السنين مازلت آخذ عدتي وأجلس وحيدا في هذه البقعة الأكثر وحشة.

هبطت ناحية القرية، كان الانحدار شديداً، وهناك درب لمسار الحمير أكثر لطفا وأقل مشقة لكنها بعيدة ومع ذلك تتبعتها وانتابني خوف من أن عنتر تمسكه حالته العجيبة وأنا في هذه البقعة المقطوعة ويتوقف لكن الله لطف.

كان عليّ أن أسأل عن شاغل بن خلوف صديق أبي وأعطيه الوعل ليتصرف به كيفما يشاء، وأن أخبره أيضا باحتياجاتنا من مؤونة سأشتريها بنقود الوعل.

دلني عليه شاب صادفته في درب أول حارة أدخل إليها، مشى معي حتى وقف أمام بيت شاغل، ثم صرخ بصوته مناديا أصحاب البيت، فأجابه شاغل بصوت أجش من الداخل، خرج الرجل، أخبرته بأمري، فأبدى استعداده في الحال ليأخذ القنيصة إلى السوق، قال لي:

- خلا ماشي وقت، اتبعني.

مشيت خلفه، امتدت الدرب بين النخيل ثم صعدت إلى حارة أخرى بيوتها متقاربة ومتراصّة، بعدها وصلنا إلى سوق القرية، دكاكينها بنيت من الطين وهي مصفوفة مع بعضها البعض على شكل قوس ووضعت لها أبواب خشبية لها أقفال كبيرة، وثمة ساحة توضع فيها القنائص ثم ينادي عليها الدلالون، علقت قنيصتنا وجلست انتظر بيعها، اهتم الرجل بكل شيء سلمني ثمنها واشتريت بعض التمر، ثم مشى معي حتى خرجت من القرية سلكت ذات الطريق راجعا حتى وصلت قبيل غروب الشمس، كان أبي قد هيأ الموقد للعشاء.

وسرعان ما اخذني التعب لاستغرق في نوم لم أصح منه إلا قبيل شروق الشمس، أو الأصح أيقظني أبي للصلاة.

هو يقول بأن رزق الإنسان يقسم عليه في الصباح الباكر، ومن ينام في ذلك الوقت تفوته القسمة، لا أعرف أي قسمة يتحدث عن نيلها، فأبي أعتاد أن يصحو قبيل الفجر ولا ينام الا ساعة القيلولة وعلى الرغم من ذلك كان الحظ السيء رفيقه الدائم.

هل ترى كان في زمن أبي أناس ينامون صباحهم غير عابئين بمقسم الأرزاق بينما ثراؤهم يضرب به المثل كما يحدث الآن، لو كان الامر كذلك فلماذا لم يتلذذ بنوم الصباح ولو لساعة واحدة ؟

بدأت في صعود عقبة التين الجبلي العالية، الذي نبت تحت صخرة ضخمة في الوسط،، حيث تزهر في الصيف ثماره اللذيذة الحلوة وعادة ما كانت مقصد القادمين من تلك الدرب.

أتذكر مرة حين نفد زادي وانا في طريقي عائد الى القرية من وادي الميابين، لم يبق معي ولا حتى تمرة واحدة، وبدأ الجوع ينهش جسدي، شعرت بقواي تخور وبطاقتي تخفت، لكني عندما وصلت إلى حيث تقف شجرة التين المثقلة بثمارها الناضجة، أعادت لي ثمارها اللذيذة قوتي وسكت جوعي، وحملت الكثير منها إلى البيت.

خفق قلبي بشده، كل خطوة إلى الأمام يصاحبها لهاث عميق، ثمة وخز في صدري، لقد مرت فترة طويلة لم أصعد فيها أي جبل، عضلاتي رخوة ورئتاي ضيقتان، خطوت خطوات أخرى ثم وقفت لآخذ نفسا عميقا، تحركت إلى الأمام، قلت: الدرب تنتهي مهما كانت خطواتنا بطيئة، ومثلما لا نستعجل الوصول كذلك لا نستعجل النتيجة، المهم هو أن لا نقف، الدرب تمتد وكأنها الأبد عند كل وقفة تعب أو كسل وإحباط، لكنها مع الزمن ومع استمرار المشي تنتهي.

ذاكرتي مزدحمة ثمة اشياء كثيرة تغلي في مرجلها، لقد مررت من هنا وحيدا أو برفقة شخص أو جماعة، التفاصيل تنهال عليّ من كل جانب، حينها كان ثمة واد في داخلي تهدر فيه الذكريات، واد يشبه تلك الوديان العظيمة، لا يبدأ في اليوم الأول الذي رافقت أبي فيه وأنا في الخامسة عشرة من العمر، حيث صعدت من هنا حاملا حقيبة ثقيلة، كان أبي يصعد ثم ينتظرني، اما

أنا فقد أحسست بالتعب كأني أراه وهو ينتشر كغيمة كثيفة تغطي صفحة السماء، ولا ينتهي عند هبوطي بقنيصتين ثقيلتين أعلقهما على كتفيّ ولا أرتاح حتى اصل سدرة ردة الروغ.

الليلة لا تشبه البارحة، فأنا في رحلتي هذه محمل بكل تلك السنين ووحيد إلا من ذاكرة تصعد معي أمسك بخيوطها كما يمسك الهواة بحبال التسلق.

وصلت إلى التينة، بعد أن بلل العرق ثيابي، لا هواء يتحرك ولا صوت يُسمع، كل ما أشعر به هو دقات قلبي القوية والكثيرة، وشهيقي العميق، فاسترحت عندها.

لم أحضر معي ماءً في القربة، لا أحتاج إلى الماء، ففي الصباح أستطيع أن أتحمل مشقة الصعود وأستطيع أن أقاوم العطش.. جلست على صخرة واتكأت على الصخرة الكبيرة، أغمضت عينيّ، شعرت باسترخاء، قلت في نفسي، كل تعب يأخذ معه تعبا آخر في النفس، أحسست حينها بشيء من السكينة، فتحت عينيّ، مددت رأسي ناحية القمة، لقد قطعت نصف المسافة وعليّ أن أقطع المسافة الأصعب.

في تلك الرحلة إلى وادي خبّ الشيخ تعلمت استخدام البندقية، ولأول مرة سمح لي أبي أن أمسكها وأصوب على كهف في الجبل المقابل.

كنت ألح عليه أن يعلمني، وكان يقطع كل توسلاتي باجابة من كلمتين:

- يوم غايته.

وأنا أنتظر يوم الغايته هذا ولا يجيء، أعيد الكرة بعد فترة:

- باه، أبا أنقّع

فيجيب بذات الإجابة، لكنه تلك المرة رد علي بجواب مختلف، قال:

- صبرّ..

قام أبي من مكانه، تناول البندقية ثم ألقمها طلقة واحدة، ومدها ناحيته، كنت متفاجئا، في الحقيقة كدت أصل إلى نقطة البداية في مرحلة الملل واليأس، بأن أبي لا يريد أن يعلمني التصويب، ولا يريدني أن أقترب من بندقيته أبدا.

خفق قلبي بشدة، أمسك كتفي، وبهدوء سحب الخشبة حتى توسطت خدي، ثم أخذ يدي اليسرى ومدها حتى بطن البندقية واليد اليمنى وضعها على الريشة، وقال:

- صبرّ، شوف على العلم، خليه في وسط الميزانية، وخلي راس العلم في وسط الجرف، قطع نسخك، لا تنتفض، وبعدين فعص بصبعك على الريشة.

حبست أنفاسي وأنا أركز على الهدف، حاولت أن أبقي العلم ثابتاً على فوهة الكهف ولكن إرباكي زاد من حركته، وعندما أيقنت بأني وصلت إلى حالة السكون، سحبت إصبعي على الريشة ودوت الطلقة، التي أصمت أذني بطنين لم أعهده من قبل، كادت البندقية أن توقعني أرضاً من شدة رجوعها للخلف، مما أدخل أبي في نوبة ضحك عالية ترددت على سفوح الجبال من حولنا، لكن الطلقة استقرت في بطن الكهف تماما.

كان الغبار يخرج من فوهة الكهف، سكت أبي عن الضحك، وهز رأسه وهو يأخذ البندقية ويعيدها حيث كانت معلقة، قائلا:

- الأولانية حال الحظ.

في تلك الليلة، ظلّت أذني تطن من أثر صوت الطلقة، لكنني في الأيام التي تلت تعودت على صوت الطلقات ولم تعد تطن، لقد تعلمت كيف أمسك البندقية وكيف أصوب على الهدف، كان أملي أن يسمح لي أبي بأن آخذ البندقية وأطلع الجبل لأصطاد بها، لكنه قال:

- ركب لهزيلة إلين تجيك السمينة، تعلم تضرب حمامة، وخلاف فكر في الوعل.

في المساءات التي نعود فيها إلى حيث سنبيت، قبيل غروب الشمس بلحظات، يسمح لي أبي بأخذ البندقية والبحث عن طائر اقترب للبيات هنا أو هناك، أو نزل ليشرب، حمامة أو صفرد أو قطاة، لمحت أحداها أمامي تقف على غصن الغافة، كان الضوء ضئيلاً، لكنه يكفي كي أراها من علامة التصويب، وبهدوء سحبت البندقية من كتفي وجلست القرفصاء متأهباً للتصويب ناحيتها، وضعتها في الوسط تماما، أخذت نفسا عميقا ثم أطلقت عليها، فسقطت هامدة تحت جذع الغافة.

ركضت فرحا، أخذتها وركضت بها صوبه:

- باه باه، حمامة حمامة..

كان فرحا جدا، لأنه لم يصادف أي كائن طوال النهار، بينما كانت الحمامة عشاءنا الذي تناولناه مع الخبز.

ربما كانت السبب الذي جعل أبي يثق بقدرتي على التعامل مع البندقية، لذلك سمح لي بعد ذلك بأخذها بعيدا، وهكذا بدأت أتعود وأحب الذهاب في رحلات القنص.

في الصباح الباكر توجهنا هابطين الوادي ناحية القرية، الشوق إلى البيت وإلى شقاوة إخوتي الصغار يملأ قلبي، كان قد مضى علينا في الجبال أسبوع كامل، لكنني لم أطق الحياة هكذا، لقد تعبت، شعرت بأنني على وشك البكاء، برغم أنني تعلمت شيئا جديدا لكن الوحدة تضخمت في داخلي، شعرت أنني أريد أن أسمع الضجيج والصراخ، أن أركض في طرقات الحارات، أن أمشي مع الفلج، أتربص بالفتيات، كنت أريد الحياة التي لا توجد إلا في القرية، وكنت قاب قوسين من أن أبوح بذلك لأبي، لكنه أحس

بما يعتمل في خاطري فقال لي ليلتها:

- باكر الصبح نروح البيت.

من هناك، من تلك النقطة في العقبة، عند شجرة التين، تبدو ملامح الأشياء البعيدة واضحة، قمة جبل الذروة وكأنها قريبة من المكان برغم أنها تبعد أكثر من عشرة كيلومترات تقريبا، اسفلت طريق القرية وحاراتها المتناثرة، جبل جميجم العظيم، وملامح من قرى بعيدة.

لم يتغير المكان كثيراً، فقط ثمة بيوت جديدة نبتت عند مشارف القرية، لكن هيبة وعظمة الجبال المحيطة تجعل من هذه التفاصيل شيئاً لا يذكر.

توقفت مرات عديدة، لكني قطعت مسافة طويلة حتى صرت قريبا من النهاية، وضعت كفي على جانب الجبل، هناك تذكرت الحادثة التي مر عليها ما يقرب من ثلاثين عاما، عندما كنت أصعد مع ود مفتاح، إذ فاجأنا سربٌ من القطا كامناً تحت الصخور، الطائر الذي يموّه نفسه مختبئا بين الصخور عنا، طار فجأة من تحت أقدامنا، جفلنا فزعين وسقط ود مفتاح، كاد أن يتدحرج على المنحدر لولا أن علقت بندقيته في شق من الشقوق.

استرحت أخيراً على القمة، هبت النسمات باردة لتأخذ معها العرق وتجفف الملابس، شعرت بلطف برودتها على جسدي، خفتت حدة لهاثي وتبلل حلقي برطوبة الهواء، كان ثمة بركة عميقة وزرقاء في الأسفل، يتساقط عليها الماء من شلال عال، سوف أنزل ناحيتها، وهناك سأشعل النار ثانية لعمل القهوة، وآكل معها فطيرة الجبن والعسل، سأعلق على شجرة اللثب حقيبتي وأشيائي، سوف يكون مقيلي هناك، أما مبيتي فسيكون بالقرب من بركة الماء الصافية كدمعة الغراب.

الفصل الثاني

(1)

مرّ وقتٌ طويل على القنّاص صالح بن شيخان حتى اعتاد على ان يعتزل ويستكين الى نفسه دون الآخرين وما يجلبونه من هم ونكد، وحين كان يخرج الى عمله لا يختلط مع أحد ولا تعنيه القرية وما يدور فيها من أحداث وصارت شخصيته وصمته الغريب قصة وأمثولة بين الناس ومثيرة للرغبة لدى آخرين في الاقتراب منه ومحاولة الحديث معه ومرافقته، لكنهم عادة ما يصطدمون بحاجز صمته الرهيب وبكلمته التي لا يخجل في قولها في وجه من يقترح عليه مصاحبته، كان يقول لا، بطريقة نزقة تجعل من يكلمه يتردد قبل الخوض معه في أي شيء.

كان عمله الحكومي حارساً لخزان الماء في اطراف القرية هو أيضا يوفر له مأوى منزويا، اذ يقع الخزان الذي بنته الحكومة في الثمانينيات في سفح الجبل وهو يرتبط بمضخة تاتي بالمياه من بئر ارتوازي حفر لهذا الغرض، من مهمات عمل صالح أن يراقب منسوب المياه في الخزان ويعيد تشغيل المضخة لملئه مرة أخرى. لم تكن الكهرباء العامة قد وصلت إلى المكان حينذاك .

في غرفة ملحقة بالفناء الذي ينتصب فيه خزان الماء، كان صالح يقضي وقته، يفرش على الأرض حصيراً عند الجهة التي يستطيل فيها ظل الصباح، ثم يغلق المكان ساعة الظهيرة ذاهباً إلى البيت، ويعود في حوالي الساعة الرابعة، أي بعد أن يصلي وعند آذان المغرب يرجع إلى بيته.

بذاك المنوال الذي اعتاده في عمله كان القناص يتجنب الناس والحديث معهم، حتى في مناسبات القرية الكثيرة كان يجيء إلى مكان العزاء يصافح الموجودين واهل المتوفي وهو صامت ثم ينتقي مكانا منزويا يجلس فيه ولا يقترب من أحد، وفي الأعراس أو الأعياد كان يجيء متأخرا ليجلس على أي بسطة طعام يأكل منها ثم يقوم مسرعاً عائدا إلى بيته .

طالت عزلته التي فرضها على نفسه وتكررت ردود فعله على من يحاول الحديث معه حتى صار كائنا منفرا في القرية، انشغل الناس عنه بأمورهم وبمشاكلهم واهملوه، وهذا جل ما كان يريده من الحياة .

في البدء تزوج صالح بن شيخان إحدى قريباته من قرية أخرى لكنه طلقها، كانت تقول أنها تعبت من طبائعه الغريبة، فعندما يكون في البيت يسند ظهره على الجدار ويحدق في الفراغ، ولا يتحدث معها أبدا، وطالما حاولت ان تستدرجه للحديث في اي شيء لكنه لقاء مائة كلمة منها يقول هو كلمة واحدة لا تنفع لشيء، تقول انها كانت تصرخ في وجهه، تبكي أحيانا كثيرة، لم تنفع كل محاولاتها لكي تغير ولو قليلا من صمته الغريب حتى طلبت الطلاق.

مع عزّا التي تزوجها بعد طلاق الاولى كان الوضع مختلفا تماما، كانت هي بطبيعتها صامته، فلم يكن يفرق معها أن تعيش مع رجل صامت، تعمل في المنزل بصمت، ولا تتحدث إلا في بعض الأوقات التي لابد لها من الكلام فيها، كأن تطلب منه شراء بعض لوازم البيت أو أن تطلب منه أن يأخذها للعيادة الطبية لكنها في العادة تجلس بجانبه صامتة، تخيط قطعة قماش أو ترقأ شقا في ثوب.

كان يأكلان معا دون أن يتحدثا في شيء، ينامان معا، ثم يقومان إلى أعمالهما منذ الفجر، هي تجهز الطعام ثم تذهب في أرجاء القرية بحثا عن

الحشائش والخلال المتساقط من النخل، لتجمعه طعاما لبقرتها ولأغنامها الثلاث، أما هو فبعد أن يصلي الفجر يجلس لقراءة القرآن في فناء البيت، ثم يشرب قهوته الصباحية ويذهب إلى حراسته .

من بيته في المكان المرتفع، ومن مقر عمله أيضا يستطيع أن يراقب الأمكنة البعيدة بمنظاره، يقضي وقتاً طويلا وهو يتتبع القمم البعيدة كل يوم دون أن يكل أو يمل من مراقبته، يعرف الأمكنة بتفاصيلها، لطالما ارتقاها مرات ومرات، هنا مشى نازلا وقد علق على كتفه أحد الوعول، هناك كادت قدمه أن تنزلق ويسقط، عند تلك الباحة نام عندما غشاه الليل وحيدا وقد انقطع به الدرب، دون أن يكون لديه ماء أو زاد، في كل مكان له ذكرى.

كان إنسانا هادئا بطبيعته، يمشي بهدوء عجيب في طرقات القرية، ليس هنالك ما هو مستعجل معه، لكنه يتحول في رحلة القنص إلى كائن آخر، لا تستطيع مجاراته في المشي ولا في تسلق الجبال .

الوحيد الذي يستطيع أن يجرّ القنّاص إلى الحديث هو قنّاص مثله، وهو ما كان يفعله عمه سيف حين ياتي ليسهر معه قليلاً بعد صلاة العشاء كانا يتبادلان أطراف الحديث، كان صوت القنّاص رخوا وعميقا وكأن الكلام يخرج من صدره.

قبيل المغرب من كل يوم يهبط إلى الوادي ليتوضأ من الفلج، يجلس بالقرب من الشلال الكائن على ضفة الوادي قبل أن يذهب الماء إلى الناحية الأخرى من القرية، وكل ما يشغله هو التامل في الماء بينما فكره يتنقل من قمة إلى أخرى في البعيد .

ذات ليلة، طرقت إحدى الجارات باب بيته وهي تحمل طفلها الذي لدغته أفعى، كانت المرأة تبكي، فتحت زوجته لها الباب وطلبت منها أن تتحدث إلى صالح، سمحت لها بالدخول وأخذتها إلى حيث يجلس، طلبت

منه أن يعالج طفلها، قام من مكانه، دخل إلى مخزن صغير على جانب البيت فاستخرج عيدان عشبة جبلية يابسة، طلب من زوجته أن تطحنها وتعصر عليها قليلا من الليمون، بعد ذلك وضع الخلطة على مكان اللدغة، فما كان من الطفل إلا أن هدأ عن البكاء وشفيت رجله بعد أيام قليلة .

انتشر الخبر في القرية، القنّاص صالح بن شيخان أصبح مداوياً، جاء البعض يطلب منه وصفة عشبية لانتفاخات بطنه، والبعض الآخر كان يشتكي عدم قدرته على إتيان زوجته، لكن صالح كان ينصت إلى كل واحد منهم، يستمع إلى مرضه وشكواه، ثم يقول له :

- ما عندي دوا حالك .

الكل عادوا خائبين، البعض قال بأن القنّاص لديه علم ولكنه لا يريد أن ينفع به الناس أو ينتفع به، البعض الآخر اتهمه بممارسة السحر، لكن لم يكونوا متأكدين مما يقولونه، فحاجز الصمت الرهيب الذي يصطدمون به هو ما يجعلهم في حيرة من أمر هذا الرجل .

في بيته، لا يصرخ صالح بن شيخان على أولاده ولا يلومهم على شيء، لكنه كلما أراد أن يؤدب أحدهم تناول العصا من مكانها حيث يعلقها في وسط الدهليز، لكنهم كلما كبروا تركهم لحال سبيلهم دون أن يعاقبهم، اما الاولاد فانهم يكنون له كل الاحترام والود.

هنالك أوقات محددة يستغلها صالح بن شيخان ليمارس غايته وهوايته، فمنذ منتصف الربيع وحتى نهاية شهر يونيو من كل عام كان عليه أن يأخذ إجازته السنوية ويذهب باحثا عن العسل الجبليّ ومتتبعا درب الوعول، وفي شهر سبتمبر أيضا عليه أن يبحث عن تيس الوعل الذي يأمل أن يصطاده، وكلما وجد فرصة سانحة للذهاب استغلها دون تردد، كأن تأتي إجازة معينة مع الخميس والجمعة أو في أيام الأعياد.

لا أحد ممن في البيت يحق له أن يستخدم أشياء القناص الخاصة، من نعاله الجبليّ إلى بندقيته، حتى سيارته التويوتا القديمة، لم يسمح لأولاده أن يستخدموها، وعندما كان جيرانه يطلبون منه ذلك كان يقول لهم في وجوههم :

- سيارتي حالي وبس، محد يسوقها غيري .

لم تكن هناك طريقة إلا وقد جربها أهالي القرية حتى يفهموا شخصية القنّاص غريبة الاطوار، هو الرجل الوحيد الذي يتصف بتلك الصفات في عائلته، اذ على خلاف طبعه يمارس أخوه سعود معلم القرية واجباته الاجتماعية ورفقته واحاديثه ومشاركته اهالي القرية في كل شيء، تجده في كل المحافل وفي كل الملمّات، لا يتأخر ولا يتوانى.

العجيب في الأمر ان اولاد صالح وكلهم من الذكور كانوا على طباع عمهم في الهمة والنشاط والتعارف مع الناس بعد ان تعلموا الكثير منه بما في ذلك قراءة القرآن والتحلي باخلاق اجتماعية متدينة.

كان صالح فريدا في طباعه لا احد يشبهه حتى اولاده هو مثل الجبل صلب وأملس لا تنبت عليه الحشائش بل تنبت هناك في المنحدرات وعلى التربة البسيطة، قد تنجرف كلها بفعل السيل ذات يوم ليبقى الجبل صلداً بلا بذرة أو شجرة حوله، لكنه سيظل حذرا وبعيدا عن الاخرين هناك في قمم الصمت العالية.

(2)

نسكن بالقرب من الوادي، في مزرعة من النخل والأشجار، في بداية المزرعة شجرة لمبا ضخمة، جذعها عريض جدا، سألت أبي عنها فأخبرني بأن جده قال له إنه عهدها هكذا، لم يتذكر أحد من كبار السن متى زرعت ولأن جذعها في الوادي فعندما يجيء السيل تحيط بها المياه من كلّ جانب، وبرغم شدّة السيول الجارفة أحيانا والتي تفيض على المزرعة من غزارتها، إلا أن هذه الشجرة لا تزال راسخة، يوجد بينها وبين الفلج الذي يمد المزرعة بالماء درج مرصوص بحجارة ضخمة بلورية من عمق الوادي، درج يصعد إلى قنطرة ثم يهبط منها إلى المزرعة وأعلى القنطرة غرفة طينية وحيدة تحوي الأرز والطحين والملح والتمر، وفيها ايضا يخزن اللحم المجفف، وفي الغرفة نافذة ضيقة عليها إطار خشبي غرز بين جوانبه أربعة أعمدة من الحديد، تطل على مناظر الوادي حيث الصخور الملساء الزلقة والبرك المائية الصافية، أما في الشمال الشرقيّ من المزرعة تقف شجرة الفرصاد الكبيرة وقد احتوت المكان بظلالها الوارفة، وأعلى منها تقع حظيرة الأبقار فوق ضفة الشرجة التي تقسم المكان إلى نصفين، وتحت الفرصادة يكون مطبخ البيت، هناك ثلاثة مواقد متجاورة أسفل الجدار الحجري ومن اغصان شجرة قريبة تتدلى اواني الطبخ، ثمة فوق الجدار مساحة مسطحة نُثرت عليها رؤوس البصل وعلّقت أعلى منها قلائد الثوم.

في الشتاء ننضم جميعاً الى ذات الغرفة التي تحتوي على مخزوننا المعيشيّ،

تعيد أمي ترتيبها لكي تتسع لنا، نتكدس بعضا الى بعض ملتحفين بأغطية الصوف، على يمين الباب الصريدان المليء بجمر الفحم، وفي الزاوية المقابلة يتدلى القنديل مضيئاً ظلمة المكان .

في الصيف، نستظل نهاراً بظلال أشجار النخيل واللمبا، وهناك مساحة صغيرة جدا تكفي لشخص أو شخصين للنوم تحت ظلال الليمونة الكبيرة التي رمت بأغصانها من جدار المزرعة، وفي الليل ننام على رملة الوادي الناعمة، عندما يجيء السيل أحياناً يحفر بركة في المكان الذي نعده مرقدا لنا، وأحيانا أخرى يملؤه بالحجارة، والأجمل عندما يفرشه برملة ناعمة، لنستمتع بالنوم فوقه وكأننا نفترش أسرّة وثيرة، لكن ثمة ما يفسد علينا متعتنا تلك.

فأعداء النوم كثر، اولهم الريح التي تصمت فجأة مستكثرة علينا النسمات ليشتد الحرّ ويبدأ الوهج بالخروج من الصخور شاربا من عرقنا الراشح ولا ترحمنا الا في ساعات الليل الأخيرة، ومن ثم يأتي البعوض العدوّ اللدود الآخر الذي يتحين الفرص فما أن نخرج رؤوسنا من تحت الغطاء لنتنفس بعد اختفاء النسمات، يبدأ عرض التعذيب الذي يقوم به بين اللدغ في أي مكان من اجسادنا وبين طنينه الذي لا يطاق وعلى هذا العرض الشجي يبدأ بكاء الاطفال ما يجعل النوم شبه مستحيل مبكراً كما يقول المثل: تشوفه وما تلوفه.

كان هبوط المياه الجارفة في الوادي الموسمي يستمر اسبوعاً تقريبا نعود بعدها لنبني جداراً من الحجارة والطين على امتداد المكان لتتجمع المياه في جابية كبيرة، بعدها نغلق فتحة الفلج ببعض الأقمشة البالية والتربة وبعد أن يتجمع الماء ويفيض من الجوانب نفتحه لسقي الأشجار، ثم نعيد إغلاق الفتحة مرة أخرى منتظرين ليومين أو ثلاثة حتى تفيض الجابية مرّة أخرى، ثم تأتي السيول فتأخذ ذلك الجدار، لكنها تعيد إلينا عذوبة الماء والحياة .

عائلة أبي جميعها تهبط مساء لتنام في الوادي، لكل بيت مكانه الخاص، تم التعارف عليه من قبل، يهبطون إلى مراقدهم، يربطون أغنامهم بالقرب منهم، ويعلقون على المشاجب قِرَبَ الماء، وبالقرب تكون مواقد النار التي تحضر عليها وجبات العشاء والريوق وقهوة الصبح، وبعد سويعات قليلة من غروب الشمس يغرق المكان كله في السكون، ما عدا أصوات كائنات الليل من الجنادب والصراصير وغيرها من دواب الارض .

عندما كان أبي في السابعة من عمره توفّي جدي، وساد الهرج من بعده في قسمة التركة، لولا تدخل الشيخ وقاضي الإمام الذي حضر شخصيا ليوقف اقتسام التركة حتى يبلغ الصغار رشدهم، وبعد أن أكمل أخوهم الأصغر وهو العم سيف عمر الخامسة عشرة بدأ الكبار في فتح الموضوع من جديد، جاء القاضي ومعه بعض الشيوخ وبعض أهالي القرية ليشهد الجميع القسمة.

كان لجدي الكثير من الأموال والمزارع والبيوت، فهو يعد من أغنياء القرية، وكان النزاع على أمكنة محددة بعينها ومن نصيب مَنْ ستقع، كل واحد يود أن يأخذها له، لذلك تدخل القاضي بنفسه في القسمة، ولكن قبل ذلك أخرج جزءا من الاموال للأرامل، وما وصّى به جدي لان يظل وقفاً أو صدقة، ثم قسم الأموال بعد ذلك إلى تسعة مواضع وطلب من أصغر الأخوة أن يختار نصيبه، كان العم سيف قد اختار الجانب الجنوبيّ من المزرعة التي نسكن فيها بينما تلاه أبي وأختار الجزء الشماليّ منها، بعد ذلك أخذ كل واحد من الأخوة نصيبه من التركة وكتب القاضي صكا شرعيا لكل واحد منهم عن ماله ومن أين يبدأ وإلى أين ينتهي .

أمي أسماء تجيد عمل اللبن المخيض، فكل يوم نصحو على صوت المخيض وهو يترقرق عندما تحركه أمي في قربة جلدية خاصة باللبن، كانت

تدق به صدرها ثم تدفعه إلى الأمام بإيقاع متكرر يشبه منبه ساعة، كل يوم في ذات الوقت لا يتأخر ولا يتقدم .

هذه عائلتي، ليس لدي أخوة كثر، هنالك أخ أصغر مني وأختان أيضا وقد توفي واحد أيضا وُلِدَ بين البنات، وانقطع النسل عن عائلتي لنصبح كما نحن الآن، أنا وأخي سعود وأختاي عامرة وعميرة .

بعد أن ولدت أمي أختي الصغرى عميرة قرر أبي السفر إلى خارج القرية، كان قراره مفاجئا لنا، حاولت أمي ثنيه، أخبرته بأننا في أحسن حال بوجوده ولا داعي للسفر بعيدا، وإن الأطفال بحاجة إليه، وعندما عجزت عن الحديث معه ذهبت إلى العم سيف، أخبرته بنية زوجها، فجاء وحاول معه أيضا لكن بلا فائدة .

في اليوم الذي رحل فيه كنت أجلس على جدار المزرعة، مدليا رجليّ ناحية الوادي، اقترب مني يريد أن يودعني، كدت أن أبكي، رأى في وجهي عدم الرضا، وقرأ في عينيّ ذلك الغضب المكبوت في النفس وتلك الصرخة التي يتردد صداها في الداخل ولكنها لا تخرج، ربما سمع الصرخة فتراجع، ابتسم ونظر إلى مكان آخر وكأنه يحاول أن يغيّر من الحالة التي شعر بها، ركضت عامرة وتعلقت به، حملها، كانت في الخامسة من عمرها، اقترب سعود مبتسما فضمه إليه، كان الارتباك واضحا على أمي وهي تتحرك هنا وهناك، في ذلك اليوم بكيت بحرقة لأنه سافر، شعرت بغيابه ينزل بثقله على كتفيّ، وفي تلك الليلة نمت ملتصقا بأمي وأنا أسمع تنهداتها الساخنة .

رحل أبي إلى الخليج، جلس هناك فترة طويلة امتدت حتى سبع سنوات، عمل حمّالا في الخبر ثم انتقل إلى البحرين وعمل في مهن كثيرة، ثم عاد إلى القرية بعد ذلك واشترى ضاحية من النخيل وبدأ يعمل فيها، ثم لم يخرج بعدها إلى مكان، بل ظل في القرية .

أما أنا فلقد رافقت طوال هذه السنين العم سيف، الذي قبلني في كنفه كابن، ولم يبخل عليّ في تعليمي ما يجيده من أساليب المعيشة .

بعد شومة أبي حملت التفق، كنت قد تعلمت ما يكفي لمعرفة كيف أستخدم ذلك السلاح، ثم أن عليّ مساعدة أمي في معيشة البيت، فهي تطعمنا مما تبيعه من اللبن ومما تصنعه من السمن البقريّ، أو ما تخيطه من مشغولاتها التي تعجب نساء القرية، واللاتي يشترينه منها بثمن بخس يكفي لكي يسد رمقنا لأيام .

العلاقة التي كانت بين هذين الرجلين كانت محط غيرة وحسد من الأخوة الآخرين، فلطالما دسوا الدسائس وخلقوا الوساوس ليحطموا ذلك الجدار السميك من المحبة والثقة، لكن حيلهم كلها كانت مكشوفة للجميع فالعم سيف وأبي وأمي وعويش كلهم يدركون ما يراد بهم لذلك كانوا حريصين أن يبطلوا كل مكيدة على الفور .

سيف بن حمود، الرجل الذي يغضب من لاشيء، هو رجل مختلف تماما عندما يتعلق الأمر بالقنص والرحلات الجبلية، إنه هادئ جدا وأعصابه تشبه صخور الصفا القوية، فهذا الإنسان الهشّ العصبي في القرية يتحول هناك إلى كائن آخر، يصبح رجلا حجرياً .

يقال بأن وفاة طفله أثرت في نفسه، اذ لم يكن هكذا من قبل، ويقال بأن محاولاته للخلف بعد ذلك والتي كانت نتيجتها اليأس هي التي أوصلته إلى هذه الحالة، الكثير منهم يتحدثون عنه في غيابه ولكن لا أحد يفهم ذلك الرجل.

العم سيف في حقيقته رجل قناص لا يستطيع أحد أن يجاريه في الرمي ولا تستطيع أية طريدة أن تفلت منه حين تكون في مرماه، فإذا تناول بندقيته وصوب الرصاصة إلى الهدف فهذا يعني حتما إصابته.

منذ أول رحلة جبلية معه كان يمارس معي دور المعلم، ففي المرة التي رافقته كان معنا أربعة رجال من القرية، سنجور ود حمدان، وود مفتاح، ومرهون ود الصْلِبْ، وجمعان بن رزيق، وهي الرحلة الأولى التي أتعرف فيها على ود مفتاح أيضا .

ذهبنا إلى وادي ياء، لم أصل اليه من قبل، فهذا الوادي لا يشبه أيّاً من الوديان التي زرتها، جباله العالية جدا وسفوحه الخضراء وقممه المليئة بأشجار اللقم العملاقة وبركه العميقة، كل تلك الأشياء كانت وما زالت تصيبني بالدهشة، فبرغم الطريق الوعر والشاق للوصول إليه إلا أنني شعرت به أكثر رحابة من غيره، بل إني أحسست براحة في البال مما اعتراني من حزن بسبب سفر أبي المفاجئ .

مرهون ود الصْلِبْ كان أكبرنا عمرا، رجل قصير القامة بلحية مدببة بيضاء وصلعة مكتملة يغطيها بمصرِّه الأبيض الخفيف، حمل بندقيته على كتفه وعلى رأسه حمل صرّة فيها بعض أغراض الرحلة .

خرجنا من البلدة قبل صلاة الفجر، وما أن تشرق الشمس حتى نكون قد وصلنا أسفل عقبة الرفاص، تلك العقبة العالية التي بنى الأجداد عليها درجاً من الحجارة المصفوفة فوق بعضها حتى يتمكنوا من صعودها، إن صعود هذه العقبة يعتبر اختباراً لقوة تحمل الرجال، فجميع العقبات التي أعرفها تكون مائلة والدرب فيها ملتوٍ لكن عقبة الرفاص الصعود إليها يتمُّ عموديّا .

كنت في البداية أمشي خلف العم سيف وكان يحكي حكايته لجمعان وسنجور عن آخر مرة رآى فيها تيس الوعل لكن بدأت قوتي تضعف وصار الإرهاق والتعب يشبكان جسدي، بينما الجميع ماضون في الصعود ولا مجال للتوقف تأخرت عنهم خطواتي لكنني ما زلت أصعد، كان ود مفتاح يسبقني بخطوات، نظرت إلى الخلف فرأيت مرهون يمشي خلف الجميع .

علينا التوقف للراحة في العقبة أربع مرات، لقد وضع الأقدمون أيضا هذه الشروط، هنالك ما يشبه الاستراحات، حجارة مسطحة في الربع الأول من العقبة، شعرت بطاقتي تعود وبحيويتي تشتعل ثانية بعد تلك الدقائق التي ارحنا فيها وصل مرهون أخيرا، لكن ما ان حط اغراضه ليريح نهض الجميع وتابعوا مسيرهم، لم يأخذ وقتا كافيا للراحة .

الحكاية تطول والعقبة تنتهي استرحنا وسطها ثم في الربع قبل الأخير وعندما جلسنا في قمة العقبة عند فتحة جبل تُسمى أذن محمّود ننتظر مرهون عندما وصل أخيرا كان صامتا، قام العم سيف مرّة أخرى ليكمل المشوار، لكن في تلك اللحظة انفجر مرهون صارخا ولاعنا في الجميع،:

- الحياة هذا النسخ بو يدخل ويخرج، وانتوا ما راحمين عمركم، كيف لو خرج وما دخل مرة؟ ما تكونوا فسيتوها العافية؟

غرق الجميع في الضحك، كانوا في الحقيقة قد قصدوا أن يفعلوا ذلك بالرجل حتى يصل إلى تلك الحالة من الغضب .

في طريق النزول إلى وادي ياء مررنا بمحاذاة ميبان العفريت وهو شلال عال تتساقط منه المياه حتى تصل إلى الوادي، عندما نزلنا إلى الأسفل حيث تتجمع المياه تناولت بكفي جرعات قليلة أبُلّ بها شفتي لكن الماء النازل كان شديد البرودة مما أغراني لأشرب منه حتى ارتويت .

وصلنا الحِبّاسة، كان مقيلنا تحت سدرتها، في الليل نمنا بالقرب من بركة كبيرة، قفزت فيها قبل النوم واستمتعت بسباحة رائعة .

في تلك الليلة أوقد الجميع نار حكاياتهم، تحدثوا عن رحلاتهم وذكرياتهم، تكلموا عن السحرة والجنّ والمغايبة، وحضرت سيرة النساء والتغزل فيهن بدأ مرهون ود الصْلِبْ يترنم بالشعر، كان شاعراً جميلاً يجيد

فنون الشعر من ميدان ومن مسبّع بينما العم سيف يردد ما يسمعه منه ويكرره ليحفظه عن ظهر قلب .

ما ان استغرقنا في نومنا حتى صحونا على صراخ سنجور ود حمدان وهو وسط البركة، قفز إليه العم سيف وود مفتاح وسحباه إلى الخارج، هدؤوا من روعه، سألوه عمّ أصابه فأخبرهم بأنه حلم بأن سحرة كثر تحلقوا حوله وأرادوا أن يختطفوه فهرب منهم ووقع في البركة.

نام بعد ذلك ونمنا من التعب وما هي إلا ساعة أخرى حتى سمعنا صراخ سنجور من وسط البركة مرة أخرى، وبعد إخراجه منها طلب منه العم سيف أن ينام بعيدا عن البركة، لكنه كان خائفاً، أخذه مرهون وناما معاً في رملة ناعمة على الضفة بعيداً عن الجميع، وفي الصباح استأذننا مرهون ليعود مع سنجور ود حمدان إلى البلدة .

بقينا أربعة، كان نصيبي أن أذهب مع عمي سيف صعودا مع الوادي حتى وصلنا إلى وادي صريد، بينما ود مفتاح وجمعان دخلا وادي الحبّاسة متجهين صوب وادي الريّان .

في رحلةِ الصيد لابد أن تكون حواسُّك كلها مستيقظة، فأنت لن ترى بعينيك فقط بل لابد أن تتوجّس القنيصة ووجودها بكلّ جزء في جسدك، أن تستمع للأصوات من كل الاتجاهات، أن ترقب الظلال، أن تحدس أن خلف تلك الشجرة شيئا ما، وأن تكون متأهبا لاستخدام بندقيتك في أي لحظة.. هذا ما كان يقوله عمي سيف لي وهو يشرح لي ترقب القنيصة .

كنت أمشي خلفه، وهو يضع قدميه على الأرض بخفة حتى لا تصدرا صوتا بين الصخور، يمسك البندقية بيمينه ويتلفت بحذر صوب السفوح.

إن أحد الشروط التي يتطلبها المشي في دروب الجبال هي أن يمشي الرجل خلف الآخر مع تركه مسافة بسيطة تحسبا لانزلاق صخرة أو سقوط

فتات التراب، لذلك أمرني العم بأن أمشي خلفه مع ترك مسافة فاصلة بيننا وحين يلتفت يراني أتبع طريقه .

وادي صريد مليء بالحجارة الكبيرة الساكنة في القعر، وهو شديد الانحدار منذ بدايته، نصعد من صخرة إلى أخرى ونجتاز أحراش أشجار الحلف واللثَبْ، كانت الريح ضدنا، تأتي من أعالي الوادي بينما كنا نصعد، لا بد من استقبال الريح في القنص، هكذا أخبرني العم سيف، لأنَّ الوعلَ حيوان ذو حاسة شم قوية يستفيد من الريح في حمل رائحة القناصين وصوت خطواتهم على الصخر، بينما عندما نستقبل الريح تذهب روائحنا بعيدا ونستطيع أن نسمع تساقط الحصيات في السفوح التي قد يمشي فيها أحد الوعول .

وصلنا إلى نقطة بعيدة في عمق الوادي، ثم بدأنا نصعد عقبة بها درب ملتوٍ يصعد إلى إحدى القمم، النسمات ما زالت باردة، لكن الريح سكنت فجأة ونحن في صعودنا فبدأ العرق يتجمّع على جباهنا، وبدأ لهاثي يزداد مع كل خطوة إلى الأمام .

عندما وصلنا القمة أحنى عمي رأسه الى الأسفل متلصصاً على المكان ثم أشار لي بيده أن أجلس، كانت قدماي تكشطان الحجارة فتتساقط، أشار لي أيضاً وهو ما يزال يرقب المكان أن أبقى هادئا، كانت تفصلني عنه بضع خطوات، جلس القرفصاء ويداه متأهبتان على البندقية، ثم فجأة صرخ بي:

- أفا، أفا، تعال وعل وعل ..

مد بندقيته، اقتربت منه:

- هناك تشوفه ؟.

رأيت أنثى الوعل تتسلق الجبل المقابل لنا مباشرة مع وليدها الصغير، قال عليّ التصويب ناحية الصغير وهو سيتكفل بأمه، كانت العنز تمشي

خطوات ثم تقف متوجسة، همس لي أن لا أصوب على الوعل وهو يمشي، لابد من انتظار وقفته، هو يقف لبرهة صغيرة وعلينا أن نستغل تلك البرهة .

وقفت العنز، وقف وليدها، كلانا في حالة تأهب لإطلاق النار، وفي لحظة معينة قال لي:

- تو نقّع .

أطلق رصاصته ناحية الأم، بينما استقرت رصاصة بندقيتي في العتود الصغير، فسقط متخبطا في دمه .

أخطأ عمي العنز، قفزت من مكانها وركضت صاعدة، لكنها أحست بأن وليدها لا يتبعها فوقفت تنظر إلى الأسفل، تنظر إلى وليدها وهو يرفس لافظا أنفاسه الأخيرة، وفي تلك اللحظة انطلقت نحوها رصاصتان، كنا نصوب إليها معا، فسقطت مكانها .

ركض عمي على السفح، اتّبع طريقا دائريا يوصله إلى الجبل المقابل، ركضت خلفه، لا أدري من أين جاءت تلك القدرة في رجليّ أن أركض وأنا الذي وصلت مرهقا وتعبا من أثر الصعود، وصل عمي قبلي استل سكينه من غمدها وذبح العنز بينما هبطت ناحية العتود الصغير وذبحته بسكيني، كانت أول قنيصة أصوب ناحيتها وأول وعل أذبحه .

صعدت بالصغير إلى حيث ترقد أمه، كان عمي قد شق بطنها واستخرج أمعاءها، فتح معدتها واستخرج الفرث منها ورمى بما لا يحتاج من الامعاء، سلخ بعض جلدها من القدمين والساقين فربط القوائم ببعضها، فعل بالمثل في الوعل الصغير، علّق العنز على كتفه كما تتعلق القربة وساعدني في تعليق قنيصتي ثم مشينا هابطين المنحدر صوب الوادي متجهين إلى حيث مقيل الجماعة .

أخبرني عمي بأن العنز قد أصابتها الرصاصتان، إحداهما في رأسها والأخرى في كفتها مرورا بقلبها مباشرة .

عندما هبطنا من القمة، أمرني بجمع بعض أعواد الحطب، مدّ سكينه إلى فخذ الصغير وسلخ جلده، اقتطع قليلا من اللحم، قطّعه إلى أجزاء صغيرة ثمّ شكّه في مشكاك بعد أن هدأت النار واستوى الجمر واحمرّ وضع المشكاك على الفحم وشواه وبعد لحظات أخذ نصيبه من اللحم المشويّ وأعطاني الباقي قال بأن للقناص نصيبا من قنصيته لابد له أن يتذوق لحمها قبل كل الناس، ومن حقه أن يختار الموضع الذي يقتطع منه ذلك النصيب .

عدنا إلى مقيلنا وكان ود مفتاح وصاحبه لم يعودا بعد، علقنا قنيصتينا على السدرة، أخذت القربة وذهبت ناحية الوادي لأملأها ماء بينما تناول عمي دلة القهوة، أشعل النار في الموقد ووضع بنّا في الدلة، أكلنا رطبا جلبناه معنا، كاد ما في الحقيبة ينفد، كلما أخرج عمي قبضة من الرطب أكلناها كلها فيعود ليستخرج قبضة أخرى، شربنا القهوة، شعرت بروحي تعود وبالجوع يذهب رويدا رويدا، وبعد لحظات عاد الصاحبان خاليي الوفاض ومتعبين من المشي وشمس الظهيرة .

صرخ ود مفتاح عندما لمح القنيصتين المعلقتين ورأسيهما المتدليين:

- غبن ود غبن، بو يقول عنك حمق يا ود محمد .

لكن العم سيف أشار ناحيتي، وهو يقول:

- هذا القناص ما أنا .

- كلكم سحير، أبوه يطير ورى الذبابة، وانته قناص تقصّ الخوص، مو بيطلع صالح ود شيخان ؟

في تلك الرحلة عرفت ود مفتاح أكثر فبرغم أنه يكبرني في السن إلا أنه أصغر من عمي بكثير، بدأت أعرفه جيدا ذلك الشاب المفتول العضلات

الذي يحمل فوق كتفه أي حمل مهما كان ثقيلا وبخفة منقطعة النظير، اسمه سالم بن سعيد، لكن لقبه طغى وعاش به حتى نسى الناس في القرية أو تناسوا اسم سالم، ناداه الكل بود مفتاح وهو لم يكن يمانع بذلك .

في قريتنا تعلق الألقاب بالناس ولا تنمحي أبدا، فلكل شخص هنا لقب خاص به يعرفه الناس وتجد بأن أغلبيتهم يتعايشون مع ألقابهم بمحبة ولا يجدون فيها حرجا، على الرغم من أن بعض الألقاب تشعرك وأنت تنطقها بالخجل والاستصغار، مثل عامر شنطوط، ومحمد القرّة.

كان أبوه سعيد بن سليمان رجلا طويل القامة وقد لقبه الناس بمفتاح لطوله كانوا يسمونه سعيد المفتاح وبرغم أن له أبناء كثرا إلا أن سالم هو الذي حمل لقبه والتصق به وسار معه إلى النهاية، حتى عندما جاء رجل مرسولا من قبل دائرة الشؤون الاجتماعية فيما بعد، وجلس يسأل الناس عن سالم بن سعيد، لم يعرفه الكثيرون بل إن بعضهم أكد للرجل بأنه لا يوجد أحد بهذا الاسم في القرية، وبمصادفة كان ود مفتاح ذاهبا إلى نخيله، فسأله أحدهم:

- ود مفتاح .. تعرف سالم بن سعيد؟ فيه رجّال يسأل عنه .

عندما يمشي ود مفتاح لا تستطيع اللحاق به، أو كما يقول عنه أبي: رِجل في الشرق، ورِجل في الغرب.

فرح ود مفتاح عندما سمع من عمي أنني من اصطدت الوعلين لم ارد ساعتها ان اكذبه ربما كان يريد أن يخلق في ذاتي قناصا آخر، لم يكن يبخل عليّ بشيء في تعليمي كيف أتجه وأين أتجه وأين هي الأماكن التي من المتوقع أن يرعى فيها الوعل وأي الدروب أسهل للوصول إلى القمم .

في المساء سلخنا القنيصتين، وقطعنا اللحم إلى قطع صغيرة، ملحه جمعان وبهّره، ثم جهّزه للشواء، شككنا القطع في المشاكيك التي صنعناها من زور نخل الوادي، ثم وضعنا اللحم على الجمر، بينما تناول ود مفتاح

العظام وصنع لنا منها مرقا لذيذا، فهذا الرجل هو أفضل من يصنع المرق.

بعد العشاء، أوقد جمعان الحكايات من جديد، حكايات لا تنتهي عن الأجداد، حكايات حدثت في قريتنا أو في القرى المجاورة وحكايات تناقلتها الألسن من بلدة إلى أخرى عن الحروب والقبائل عن الامام الذي كان في نزوى وعن حرب الجبل الأخضر، حكايات عن زنجبار وعن المغتربين في الشمال الذين يشتغلون في البحرين والكويت والخبر .

كانت حكاياته تعيد إليّ ذكرى أبي المسافر إلى هناك فأحدث نفسي وأسأل عن أحواله؟ ترى كيف أنت الآن يا أبي، كيف هي رحلتك؟ هل وجدت عملاً هناك؟ ألم تشتق إلى بلادك وأولادك؟ يأخذني الصمت والشوق إليه، فألوذ بالنوم، لكن الحكاية تتسرب إلى أحلامي، أسمع صوت جمعان وعمي سيف وهما ينسجان الحكايات، أسمع تعليقات وضحكات ود مفتاح، أقوم من مرقدي، أغيب في الظلمة حتى أقترب من البركة العميقة، أخلع ملابسي كلها ثم أقفز غاطسا في البركة، أظل هناك مأخوذا ببرودة الماء وخريره مبتعدا أكثر عن حكاياتهم، حالما بالقنائص في قادم الأيام، ومتأملا في أن يعود أبي وأن لا تطول غربته .

(3)

ضاعت الدروب، انتهت وتآكلت، وجرفتها السيول، مات معظم من يسلكونها، ها هو المكان يموت رويدا رويدا، لم يبق من علامات على الدرب ولا يدرك القادم إلى أين ستذهب به تلك الخطوط المتآكلة .

هبطتُ إلى وادي سحبوه، البركة العميقة الزرقاء يتساقط من فوقها شلال الماء ناعما باردا، تلك البركة التي لا تمسّها أشعة الشمس إلا دقائق معدودة في وقت الظهيرة ثم تعود لتسكن في ظلالها مما يجعلها باردة طوال النهار .

علقت أشيائي على السدرة بجوار البركة، أخرجت إناءً وملأته بالماء ثم شربته كله من العطش، فبعد الطريق الذي سلكته كنت محتاجا إلى تلك الكمية من الماء، ملأت الإناء مرة أخرى ودلقته على رأسي، الماء شديد البرودة أعاد الانتعاش إليّ، تنفست بعمق، ثمة راحة لا تشعر بها إلا ساعة الوصول، تلك النقطة التي تسحب فيها نفسا عميقا وتشعر بالسكينة تحتل كل عضو في جسدك. ملأت الإناء مرة ثالثة وقمت من مكاني، اتجهت إلى ظل السدرة، وهناك صنعت موقدا لدلة القهوة، اشعلت النار، ومعها اشتعل التوجس والبحث .

وادي الميابين ليس ببعيد، ثمة حدّ صغير فاصل بين وادي سحبوه ووادي الميابين، عليّ أن أصل هناك قبل الغروب وأن أجهز مرقدا مريحا لقضاء ليلة رائعة من الصمت والوحدة والنوم العميق في حضرة جبل السويح الشامخ .

المرّة التي صعدت فيها إلى قمّة السويح كنت برفقة عمي سيف، جئنا نحن الاثنين فقط، في تلك السنوات البعيدة التي جعلت مني عاشقا لكل ما هو صعب وخشن في هذه الجبال، كنت أتحدى ذاتي بصعود أكثر المنحدرات خطورة، آنذاك جئت إلى قمة السويح كثيرا، صعدت إليها معه، تعلمت منه كثيرا من قواعد الصيد التي لم تكن تعليما ومواعظ بقدر ما كانت تجارب رسخت في ذاكرتي وذابت في دمي .

لم نصعد يومها عقبة التين، بل جئنا عبر وادي خويلص، كانت الطريق أطول، يومها كان أحد الوعول يقف على قمة بعيدة، مددت يدي إلى بندقيتي كي أصوب ناحيته، لكنه أشار لي بأن أتوقف، سمعت منه ما لن أنساه أبدا .

لا تكترث به، لا تضيع وقتك في التربص به، فالوعل يراك، ويعلم أنك تحاول مخاتلته والاقتراب منه، هو هناك في القمة ما دام في نظرك، لكنك عندما تغيب عنه للحظة فقط، عندما يتحول بصرك إلى شيء آخر، أو عندما تحول بينك وبينه صخرة أو شجرة أو منحدر، سوف تفتح عينيك وقد اختفى من موقعه، وقد يغريك وقوفه هناك بلا حركة فتتناول بندقيتك لتصوب عليه من هذا البعد، هذا هو الجنون بعينه فأنت تصوب على الفراغ وستجد نفسك وقد خسرت رصاصة ثمينة أنت بحاجة إليها في لحظة المباغتة .

إن كل رصاصة تعني قنيصة، لكن عندما تخطئ هدفها فهي لا تسمى إلا رصاصة خاسرة، الحذر الحذر أن يفلت منك الوعل أو أن يختفي عن نظرك فهذا يعني أنك خسرت القنيصة كلها فالوعل لك ما دام في مرماك، لكنه لو صعد إلى القمة واختفى فلن تجده ثانية، ولا تحاول أن تصعد خلفه للبحث عنه، فهو لن يتوقف عن الركض حتى يشعر انه قد أفلت بجلده منك ومن بندقيتك .

كل وعل له طريقة صيد تختلف عن الوعل الآخر، ليس كل الوعول سواء، إن الوعل الذي يباغتك وأنت تمشي في قعر الوادي لن يهرب في بطن الوادي إنما سيصعد الجبل الذي يقابلك، ومهما كان الجبل وعرا فهو سيقطع المسافة إلى القمة في لحظات، وعليك أن تنتظر لحظة وقوفه، فهو يقفز إلى الأعلى لخطوات ثم يقف لينظر إليك، وفي تلك اللحظات القليلة تكون قد أطلقت عليه رصاصتك .

وعندما تصوب بندقيتك إلى الطريدة حاول أن تركز على عضو معين، لا تر إلى جسد الطريدة كله بل أختر قلبها أو رأسها فقط ولا يغرنك قربه منك، ابحث عن موضع مقتله فقط.

كان يمشي ويتحدث، صوته يتسلل بهدوء إلى رأسي، يمشي منكسا رأسه، مراقبا موضع خطواته، متحدثا بصوت خافت لكنه قريب وأستطيع سماعه .

دع عينيك للبعيد واترك أذنيك للقريب فأي حجر يسقط أو هسهسة بين أعواد الحلف أو ربما صوت حوافر دابة جافلة في القرب ستسبقها إليك أذنيك ثم ابحث عنها ببصرك في الوقت الذي تكون فيه يداك على البندقية .

إن كنت ستصطاد عنزا ووليدها فابدأ بالصغير، فعندما يسقط ستقف الأم لرؤيته للحظات، ثم تستطيع أن تتناولها لكن إياك أن تصطاد الأم في البداية فالعتود لن يتوقف أبدا من الخوف حتى يقفز الجبل في لمح البصر .

بدأنا في الصعود إلى القمة، توقف عن الكلام، كان يصعد إلى الأمام خطوات ثم يقف، يراقب الأماكن، يستشرف الكهوف والمغارات، يقرأ الظلال، ثم يصعد ثانية، يتوقف ليستريح دون ان يجلس، ينظر إلى الأسفل، يسألني إن كنت قد تعبت ثم يعاود التقدم .

إن الصعود إلى قمة السويح لأمر شاق وصعب فهي قمة عالية ومن عليها رأيت القرى البعيدة ورأيت جبل الذروة بمحاذاتي وهناك في القمة كانت نسمات الهواء باردة ولطيفة في تلك الساعات الأخيرة من النهار .

على القمة ثمة شجرة سُمر وحيدة وُضعَ تحتها موقد وصُنِعَ مهجعٌ للمقيل، تراصت الحجارة حول المهجع على شكل قوس وبالقرب منها ينبع الماء من صخرة متدفقا ضئيلا نازلا على الصخر حتى يتجمع في بركة صغيرة، تعجبت كيف يبقى الماء في أعلى القمة ومن أين يأتي؟ سألت عمي، كان جوابه بأن مخازن الماء في الجبال كثيرة وأن عروق الأرض بالداخل مثل سواقي الأفلاج تأخذ الماء من أمكنة بعيدة وتخرج من حيث تنتهي تلك العروق على سطح الأرض .

أعجبني تفسيره، نظفت بركة الماء من الطحالب التي تغطي سطحها ثم ملأت القربة وعلقتها على السُمرة .

المبيت في قمة جبل السويح مختلف تماما عن المبيت على ضفاف أحد الوديان، الهواء بارد، شعرت بأنني معلق في الفضاء، رأيت الأشياء في الأسفل صغيرة جدا، لكن السماء فوقي كانت وواسعة وعظيمة .

استلقيت بعد العشاء فاتحا عينيّ على النجوم، أستمع إلى حكاية عمي عن أولى رحلاته إلى هنا .

لم تكن السكاتين في ذلك الوقت موجودة عندما كنت أذهب للقنص، الصمعة هي البندقية المعروفة والمتوفرة آنذاك، كان علينا أن نصنع البارود، نجتمع تحت ظل جدار المسجد والنخيل نتعاون جميعا في صناعته، ثم نتقاسمه حسب الحاجة .

الصمعة تحتاج إلى خرزة الرصاصة التي نلقمها الفوهة وتحتاج أن نسكب البارود في بطنها ثم إلى المدكّ الذي من خلاله نرص البارود ونضغطه

إلى الداخل، ثم نصوبها على الهدف، وفي أوقات كثيرة لا يشتعل البارود وتذهب الطريدة هاربة بين الجبال .

عندما بدأ الناس في إستعمال السكتون، كان مرهون ودْ الصْلِبْ من أوائل المعترضين على البندقية الجديدة، لم يكن ليقتنع بأنها بتلك الرصاصة الصغيرة قادرة على أسقاط حيوان من مكان قريب، فكيف به من أعالي القمم، قال غيره بأن من باعكم هذه البنادق يريد بكم شرّا، يريد منكم أن تبيعوا الصمعات ويستبدلكم هذه البنادق التي لا تنفع، هم يريدون أن يسحبوا عنكم الصمعات ولكن بطريقة ملتوية وخبيثة، أما سلطان بن حمد القناص قال عندما أمسك بيده السكتون وصوّب به، ثم هزه في يده كما يهز الراقص سيف العازي قال:

- هذا مال صغيرين .

لقد أعجبت بالسكتون، صوت الرصاصة وهي تنطلق تتردد بين سفوح الجبال بنغمة مختلفة عن صوت انفجار البارود في الصمعة التي تصم الأذن هذا عدا رائحة الدخان التي تسبب الاختناق من كثافتها، لكن السكتون بسيط في الحمل وفي الاستخدام بل إنه يصل إلى مسافات لم تستطع الصمعة الوصول إليها من قبل .

لقد قنصت به الكثير من الوعول، كنت أعود إلى البلدة كل يوم بقنيصتين أو ثلاث، الوعل يا ولدي حيوان عجيب يعلمك الحذر والتوجس يعلمك أيضا أن لا تخاف، ربما تخسره في الوقت الذي تقتنع في داخلك بأنك قد كسبته، وتكسبه أحيانا في لحظات المباغتة وأنت غافل.

كان أول وعل يقع بين يديّ عندما صعدت إلى الجبل الطّايح، كنت أمشي في الحد الفاصل بين وادي مقدسي والوادي الفارع، في تلك الدرب التي تؤدي إلى عقبة النخلة رأيت الوعل واقفا يشرب الماء أعلى ميبان الجبل،

كنت في القمة وكان هو في الأسفل، خاتلته ووضعت البندقية على حجر، صوبت ناحيته، وضعت العلم بين عينيّ الوعل ثم أطلقت الرصاصة فسقط مكانه مثل تمرة تسقط من نخلة .

كيف أستطيع الوصول إليه ومن فوقه كان الجبل مصقولا أملسا وعاليا، ومن تحته كان الميبان أكثر عمقا وخطورة؟ كانت هناك درب وحيدة ورغم صغرها لكنها خطيرة وملتوية، زلة قدم تعني السقوط إلى أسفل الوادي من ذلك العلوّ الشاهق، مشيت بحذر، قبضت بيديّ في جسد الجبل، كادت رجلاي أن تخوناني في لحظة ما، وكدت أن أتراجع عن الذهاب إليه، لكن الإصرار أقوى، تشبثت بالجبل حتى اجتزت المنطقة الخطرة، كان دم الوعل قد سال على الشق الجبلي مثل فلج صغير ووصل إلى البركة وبدأ ينتشر فيها .

في ذات المكان قررت أن أسلخه وأقطع لحمه وأشويه، بعد انتهاء الشواء وضعته في الهبّان.

طريق الرجوع أسهل قليلاً، لقد عرفت حينها مواضع أقدامي، اجتزت المضيق الخطر ثم مشيت على حدِّ الجبل، استقبلني أخوتي بالتبريكات لكن فرحة أخي شيخان كانت أكبر، قال لي: المرة الجاية بنشحث رباعة .

بعد أيام أخذنا ما يلزم وذهبنا إلى رؤوس الوديان، جلسنا هناك لاسبوعين كاملين، نقنص الوعول ثم نأخذها ونبيعها في السوق، بعدها نعود إلى حيث كنا، متنقلين من وادٍ إلى آخر ومن قمة إلى أخرى، متتبعين آثار أقدامها ومرابضها، كانت الوعول في تلك الأيام كثيرة، فلا يوجد واد تدخل إليه إلا وتتقافز أمامك أو تطل عليك من الأعالي لكنها أحيانا تختفي بقدرة قادر فنبحث عنها أياما ولا نجد لها أثرا .

الوعول تختفي في لحظة ما، لا ندري أين تذهب، بعضهم يقول بأنها تتنقل من جبال الحلوي إلى الجبل الأبيض، تهاجر جماعات وتتسلق هضبة

الجبل وتجلس هناك لأشهر والبعض الآخر يخمن بأن الجن هي التي تحرس الوعول وهي التي تخفيها، الوعول لا تهجر أماكنها التي تربت فيها لكنها تختفي عن الأنظار لحكمة لا يعرفها إلا حراسها من الجن .

لقد حدث معي ذلك ذات يوم، أذ لم أصطد تيس الوعل إلا مرة واحدة، فأنت مهما قنصت من إناث الوعول، لن تكون قناصا حتى تصطاد تيس وعل، القناص الحاذق من يستطيع أن يصل ويتربص بكبيرها ويمسكه أخيرا من قرونه .

كنت أشرف ذات يوم من على رأس وادي النمارات، رؤوس كثير من الأودية تلتقي هناك، وادي النمارات ووادي المليل ووادي الجروف وأيضا وادي وعلة، من هناك أستطيع أن ارى كل الأماكن، تتبعت حركة الأشجار، تمعنت في الظلال، أنصت للريح وللصدى ولكن لا شيء الى الان حتى بدأت في استكشاف وادي الجروف رأيت من على القمة تيس الوعل يرعى في مرج من الحشائش الجبلية، كان في صدر الوادي، هبطت ناحيته، خاتلته وهو لا يغيب عن ناظري، وحين صار قاب قوسين من مرمى بندقيتي، اختفى ولا اعرف اين؟ ليس في المكان الذي وقف عليه سوى شجرة ظفر، حركت رأسي يمينا ويسارا ولم أجد شيئا، قفلت راجعا كي أستطيع مراقبته من أعلى وما ان وصلت إلى النقطة التي بدأت منها حتى رأيته مرة اخرى في ذات المكان يرعى من شجيرات السخبر والسيداف دعكت عينيّ ثم فتحتهما عن آخرهما ربما أثرت حرارة الشمس عليّ، شربت جرعات ماء، بللت رأسي ونظرت إلى المكان، انه ما يزال هناك يتنقل بين الأشجار، خاتلته مرة أخرى، نزلت المنحدر متعمدا أن لا يغيب عن نظري، لكن حدث ما حدث في الأولى، اختفى التيس نهائيا ولا يوجد سوى شجرة ظفرة كبيرة ويابسة .

هبطت إلى المكان حيث كان يرعى، جلت فيه، لكنني لم أجد شيئا يدل على وجوده، صعدت ثانية ومن على القمة رأيته،، قلت هو في الأسفل وأنا من هذا المكان المرتفع ربما قد تصله الرصاصة، صوبت عليه بندقيتي وحين ضغطت على ريشة البندقية لم تخرج الرصاصة، وأصدرت البندقية صوتا مثلما يكون مخزنها خاليا من الطلقات، سحبت الزناد ونظرت إلى المخزن كان ممتلئا والرصاصة جاهزة في بطن السكتون، أخرجتها، قلت ربما تكون الرصاصة قد تنفست وبالتالي لن تنفجر، استبدلتها برصاصة أخرى وصوبت ثانية ولكن حدث ذات الشيء.

لم يكن تيس الوعل ذاك من نصيبي، أدركت أن شيئا ما يحرسه في تلك اللحظة أصابتني رهبة في نفسي ورجعت عائداً الى وادي النمارات .

اقترب نصف الليل وما زال يتحدث، نظر إلى السماء، قرأ مواقع النجوم، توضأ لصلاة العشاء، قمت على أثره، توضأت وصليت، ولم يزل في تلك الظلمة يصلي بخشوع وهدوء، استلقيت وأسندت رأسي على حجر كنت قد لحّفته بعمامتي، حدقت في صفحة السماء من ذاك الارتفاع حيث المدى لا تحده حدود، تبدو السماء مفتوحة وغنية بذلك النثار العظيم من الأضواء الصغيرة، وسرعان ما تلبس عينيّ النوم.

حلمت بأنني أطير محلقا من قمة السويح، أحيانا أهوي إلى قيعان الوديان ثم تأخذني الريح إلى أعلى وأمر على قطيع جافل من الوعول، كنت أحاول التشبث بأي شيء حتى أثبت مكاني، بدوت في الحلم خفيفا، كنت قلقا جدا على أشيائي المعلقة على سمرة السويح، وكنت أتذكر بأنني جئت إلى هنا بصحبة عمي سيف بن حمود فأين هو الآن، سوف يصحو من نومه ويبحث عني ولن يجدني، سأكون قد قطعت شوطا كبيرا بعيدا عن المكان، لكن الريح الخفيفة لم تقذفني بعيدا، لقد رمتني على أطراف نخلة

مهلبي طويلة عند قنطرة الحارة، تمسكت بالأطراف وسقطت متزحلقا حتى وصلت الأرض، تحول الحلم مرة أخرى إلى معمعة كبيرة، أناس كثر ووجوه بعضها أعرفها والبعض الآخر أجهله، كل هؤلاء الناس يحملون على ظهورهم أجربة التمر ويتجهون صوب الوادي، ناولني أحدهم جرابا وقال لي إحمله فحملته، لقد نسيت في الحلم عمي سيف وأغراضي التي على قمة السويح واندمجت مع الناس في هرجهم، صرت أحمل جرابا وكنت أبحث عن مكان أضعه فيه .

بعد قهوة الصباح سألني عمي:

- موه حلمت؟

فأخبرته بحلمي، قال لي:

- بنضرب صيدة اليوم .

وبالفعل، لقد توجهنا صوب وادي خب عمر ونحن نمشي في الحد الفاصل بين الوديان، كان عمي يمشي أمامي، كان يحدثني بصوت هامس للحظات ثم يصمت، سمعت صوت تدحرج حجارة على منحدر مقابل، همست:

- عمي .. عمي ..

توقف وأنصت أكثر، راقب المنحدر، جلست في وضعية الاستعداد للرمي، رأيت تيس الوعل يركض وخلفه تركض ثلاث عناز، أحسست بأننا وجدنا كنزنا المفقود، همس عمي وهو يتناول بندقيته ويسدد:

- عليك بالتيس.

كان التيس في لحظتها على الشرفة مباشرة يركض بدون توقف وفي ثوان معدودة اختفى .

وقفت عنز على شرفة الوادي مباشرة، الضرب سيصل إليها، تحتاج إلى رام حاذق، التفت عمي ناحيتها ببندقيته، صوبها وأطلق النار وفي تلك اللحظة، تراءى لنا أن الرصاصة قد أخطأتها، صوب ناحيتها مرة أخرى، وأطلق النار فرأيناها سقطت .

عندما وصلنا إليها كان هناك وعلان يرفسان ويلفظان أنفاسهما الأخيرة، فمن أين جاء الآخر؟

في الحقيقة، عندما أطلق العم سيف رصاصته الأولى ناحية الوعل سقط من أثر الرمية ووقف مكانه وعل آخر في ذات اللحظة التي سقط فيها وظهر من البعد وكأن الرصاصة لم تصبه وعندما كرر عمي الرمية وقع يرفس بجوار الآخر.

شققنا بطنيهما واستخرجنا الامعاء ثم علقت أحدهما على كتفي وعلق العم سيف الآخر، تلك اللحظة فسر لي الحلم الذي رأيته، بأن جراب التمر الذي حملته لم يكن إلا هذه القنيصة وتعدد الأجربة في الحلم تعني الصيد الوفير .

هكذا هو القناص، يحتاج إلى كل رسالة تصله في هذه الجبال من حلم ومن ظلال ومن ألم أو خالج تحت العين حتى الكسل الذي يصيب النفس في بعض الأوقات له تفسيره ومدلولاته.

مرة كان طائر المنعيم الصغير يتقافز أمامنا من صخرة إلى أخرى وهو يزقزق، يرتفع إلى القمة ثم يعود ثانية، سألني عمي:

- تعرف مو تقول المنعيم؟

نظرت إليه استفهم سؤاله، قال:

- تقول الوعل فوق.

وحقا صعدنا في ذات الاتجاه الذي كان طائر المنعيم يتجه إليه ووجدنا وعلا يشرب من بركة في أعلى الوادي، صوبت ناحيته وأسقطته .

ومرة شعرت وكأن حمل الجبال كله على كتفيّ كنت كسولا وغير راغب في صعود الجبل خلف عمي، لاحظ ذلك وسكت وبعد أن أصبنا أربع قنائص مرة واحدة، قال لي:

- أتمنى كودتك هذي كل يوم .

بعد كل رحلة قنص نحن بحاجة إلى بضعة فناجين من القهوة تعيد لنا ما سال من الجسد من عرق ومن قوة، القهوة رفيق القناص أينما ذهب، يكفي أن يشرب فنجانا واحدا ثم يقفز بعدها مثل وعل، تماما هكذا مثل وعل، وهل يستطيع كائن من كان أن يعيش في هذه الجبال العالية والسحيقة إلا الوعول؟

ارتفعت الظهيرة، استلقيت تحت ظل السدرة وأنا أراقب قمة جبل السويح، كان الأرز فوق الموقد قد نضج، اطفأت النار تحته ولكي يظل ساخنا تركت عدة جمرات وبجواره قد قطّعت البصل إلى شرائح دائرية ونثرت فوقها فتات السمك المالح، بينما عصرت ثلاث ليمونات في الكوب .

على أغصان هذه السدرة ذكرى لأزمنة وبشر مرّوا من هنا، أخذوا قيلولتهم تحتها وشربوا ثم سبحوا في جابيتها العميقة، ليس هنالك موضع شبر في السدرة إلا وعلق عليه قنيصة أو قربة ماء أو إناء مملوء بالعسل الجبليّ، وبين الفرعين الكبيرين اللذين يرتبطان بالجذع ثم يفترقان ليكونا هذه الشجرة الكبيرة، بين هذين الفرعين ترك أحدهم صرّة من قماش ألوانها باهتة لقدمها ويبدو انه لم ينكشها أحد مذ وضعت، ربما تكون لأحد الشواوي أو لقناص من زمن غابر، أتذكر أنني شاهدتها مراراً وتكراراً كلما قطعت هذا المكان، لكن لم أفتحها ولم أمد يدي ناحيتها فالأشياء التي تترك في الجبال هي

لأصحابها حتى وان لم يعودوا إليها ذات يوم، تبقى في مكانها اليى ان تبلى أو ان يصلها سيل عرم ويأخذها.

مشيت حافيا ناحية البركة، خلعت ملابسي جميعها، لا أحتاج إلى ما يسترني الآن سوى هذه الزرقة وهذا الماء البارد، قفزت إلى وسط الجابية، شهقت من برودتها، كانت برودة الماء تزداد كلما تعمقت إلى الداخل، غطست أحاول وصول القاع، البرودة تزداد وتزداد متعتي، صعدت إلى السطح أخذت نفسا عميقا وحاولت الوصول تماما مثل الأيام الخوالي، عندما كنت صغيرا، مرقت مثل سهم حتى وصلت أخيرا إلى القعر، أمسكت بحصاة كبيرة متشبثا بها حتى لا أصعد، حاولت البقاء لفترة أطول ولكن ضغط الهواء في رئتي أجبرني على الصعود إلى السطح، زفرت بقوة ثم أخذت شهيقا عميقا تلاه شهيق آخر وهكذا حتى انتظم النفس وعدت إلى سكينتي وهدوئي .

اتجهت إلى حيث يتساقط الماء من الشلال، الطحالب الداكنة تجعل من المكان رطبا وزلقا، تشبثت بالصخور، شعرت بيدي تشتدان، أفلتهما خوفا من حدوث العاقول، تزحلقت إلى وسط البركة ثانية وغصت إلى مكان بارد تحت الجبل مباشرة، كانت البرودة في أقصاها تشبك رأسي واطرافي، استلقيت على ظهري واستسلمت للماء والضوء والصمت والجبال العالية.

(4)

سعود بن شيخان، أخي الأصغر، الذي يختلف معي في أشياء كثيرة، فهو لا يحب القنص ولا تستهويه رحلات الجبال، يحب أن يبقى في القرية مشتغلا في أموال أبي، يسقي النخيل ويزرع الخضروات، بل إنه اشتغل بيدارا في ضواحي كثيرة وكان يحصل على أجرته عند جني الغلال وحين ينتهي الموسم كان يذهب الى سلطان بن غنيم المعلم الذي درس القرآن حتى أكمله، يتعلم منه أصول الفقه او يقرأ الكتب الادبية التي جاء بها سلطان حينما كان يذهب الى المدن طلبا للعلم .

تعلم سلطان بن غنيم في مدرسة الامام بنزوى فتعمق في أصول الدين وكتب الشعر ثم انتقل إلى زنجبار وقضى جزءا من حياته هناك وحين عاد إلى قريته أسس مدرسة القرآن وبدأ في تعليم الأطفال وتدريسهم قراءة القرآن وحفظه .

مثل بقية أطفال القرية تعلمت مع المعلم سلطان حتى ختمت المصحف كاملا، كان أبي ما يزال في القرية وكانت بينه وبين سلطان علاقة صداقة توطدت أكثر مع سعود عندما سافر أبي إلى الخليج .

في أوقات الراحة التي أقضيها في القرية بين كل رحلة جبلية وأخرى، أجلس مع سعود أستمع إليه متحدثا عمّا قرأه من أخبار الأولين وطرائفهم، تعجبني طريقة حديثه الطرية التي تأخذ بلبي وهو يحكي القصص وينشد الأشعار .

كان ينشد أشعار أبي العتاهية وبشار بن برد وأمرئ القيس ومجنون ليلى والشافعيّ والمعرّي، وكان يقول لي قال المتنبي كذا في قصيدته الفلانية، كان يترنم بالقصائد بصوته الشجيّ.

في بعض الأحيان يشاركنا العم سيف الإنصات إلى قراءة سعود، يجلس معنا صامتا لا يعقب على شيء، أحيانا كثيرة يسند رأسه على جذع شجرة اللمبا، يغمض عينيه ويرحل إلى أعماق الحياة مع كل حرف وكلمة يقولها سعود، وسعود يدرك أن قراءته تعجبنا فيزيد منها ما يستهوينا ولا يشعر بالتعب .

كان سعود يظل في المدرسة كلما اراد المعلم سلطان ان يغادر القرية مدة طويلة، يحل محله في تدريس الأطفال صباحا وفي المساء يعمل في النخيل، ورغم تعبه من العمل لكنه دائما وقبل ان ينام يقرأ من كتبه ومن الأشعار على ضوء القنديل .

أحيانا أتمنى أن أكون مثل سعود في هدوئه واتزانه وعلمه فهو إنسان ذو خلق يتعامل مع الناس حسب طبائعهم، بفطنته وذكائه وهدوئه استطاع أن ينال محبة أعمامه وهو يدرك علاقتهم بأبيه وعمه سيف، لم يحدث أن رأيته غاضبا على الرغم من أن الغضب والعصبية متوارثة في عائلتنا المليئة بالمنازعات والمشاحنات، ولذلك فقد كسب رضا الجميع فما من احد في القرية كبير او صغير الا وتبادل معه المودة والتقدير.

في صلاة عيد الأضحى قدم المعلم سلطان للناس من يصلي بهم ويخطب فيهم خطبة العيد، تقدم سعود بن شيخان وصلى بالناس، كان صوته وترتيله مختلفا تماما عمّا تعودوا عليه، خطب فيهم خطبته التي كتبها بنفسه، تلك الحادثة التي جعلت أهالي القرية يتذاكرونها سنينا طوالا .

ناداني العم سيف لأجلس معه في الوادي أسفل بيته بعد صلاة العصر، ولم يكن ليفعل ذلك إلا إذا هم برحلة جديدة صوب الجبال، قال لي:

- نبغى سعود يرابعنا الجبل .

ولكن من سيقنع سعود الذي لم يذهب ولو لمرة واحدة؟

حين فاتحه بالموضوع بعد العشاء مباشرة، رفض متحججا بأمور الفلج والسقي وأموال الناس، ولم ينفع معه اقتراحي بأن يوكل أحدا ما من البيادير حتى يعود، حينها قلت له:

- عمك سيف باغنك تروح معنا .

تغير إصراره وبدا متقبلا الفكرة، لم أزد عليه بعدها حرفا حتى جاء عمي وسألني عن الموضوع، قلت له:

- هذا سعود قدامك كلمه، إنته والد الجميع .

حاول سعود ظاهرا أن يتملص من مقترح عمي ورغبته الذهاب معنا ولكن أخبره بأنه ليس عليه صعود القمم، فهو بحاجة أن يكون معنا فقط، عندها طلب منا مهلة لكي ينهي بعض الامور بالقرية ويوكل من يسقي أموال أبي والناس حتى نعود.

حتى لا نتعبه في صعود الجبال، قرر عمي أن نمشي مع الوادي، ذهبنا إلى خبّ الغافة، كنّا نتركه ونذهب كل منا في طريق منذ الصباح وحتى الظهيرة لنعود خاليي الوفاض، لنجد الغداء قد أعدّ، والحق يقال بأن سعود كان يجيد الطبخ أحسن منا .

حكى لنا سعود حكاية الرجل الذي جاء إلى عابد من العبّاد ليعلمه أسرار التصوف والعبادة وطلب منه اختصار تعليمه لأنه ليس لديه وقت طويل، وافق العابد على مطلب الرجل ثم اقترح عليه أن يذهبا معا في رحلة

خلوية وعندما حضر وقت الغداء قال له إصنع غداءك بنفسك فصنع كلاهما غداءه، كانت الرائحة الشهية تفوح في المكان من طعام الرجل العابد، بينما طعام الرجل الذي معه كان بلا رائحة، فاقترب الرجل وسأل العابد عن الكيفية التي عملها ليخرج الغداء هكذا؟ فأجابه العابد بأنك تريد أن تعرف أسرار التصوف والعبادة وأنت لا تجيد عمل طعامك .

هذه الحكاية جرّت الحديث إلى حكاية أخرى قالها العم سيف عن قناص كان يمتلك بندقية وكان أحد الرجال يلح عليه ببيعها له حتى وافق القناص وباع الرجل البندقية وبعد أيام عاد الرجل محاولا إرجاعها للقناص قائلا له بأنها لا تصيب شيئا فقال له القناص أنا أعطيتك البندقية ولكن لم أعطك الصنعة، أو كما قالها عمي :

- أنا عطيتك التفق، لكن ما عطيتك التفوقية .

بعد أن مالت الشمس قليلاً عن كبد السماء ذهبنا للشحث مرة أخرى، صعدت ناحية وادي بو قلع، مشيت على طول الوادي، قلت ربما أصادف طريدة نزلت لتشرب، مشيت طويلا حتى أسلمت الشمس ومالت نحو المغيب، كدت أن أعود خائبا إلا أنني قلت لنفسي سأمشي قليلا حتى الالتواء القادم ثم أعود، كنت أتتبع بعض أسرار عمي في القنص، كان يقول:

- القنيصة في المكان اللي ما تبغى توصله .

وما هي إلا لحظات حتى قفز أمامي وعل ووقف على صخرة كبيرة ينظر ناحيتي، أطلقت عليه وأصبته في لوح الكتف، سقط الوعل، ذبحته وشققت بطنه ونظفته، ثم عدت لأجد عمي عائدا دون أن يقنص شيئا .

في تلك الليلة، كان سعود يحكي ما قرأه لنا من حكايات، وكان عمي يقول ما سمعه، أما أنا فكنت مأخوذا بذلك الثنائي الجميل، الذي انسجم معا ليعطرا تلك الليلة المقمرة باحاديثهما الشجية، كان الشعر والوعل

والنساء والورع والأخلاق والأدب وأخبار القبائل والحروب والبطولات كلها حاضرة، وكنت صامتاً اتلقى كل ما أسمعه، أفتح مندوسا صغيرا في صدري وأخبئ كل ما أريد .

كان عليّ أن أشوي اللحم بينما هما يتحدثان، عمي يتكئ على زنده وقد تمدد على الأرض مستلقيا ورجلاه على طرف الرملة قرب الماء، بينما يجلس سعود بجواره وهو يجمع الحصيّات الصغيرة من الأرض ويكومها على شكل قبة، وتتعلق قربة الماء على مشجب صنعته من ثلاثة أغصان قطعتها من شجرة قفص، وبين الفينة والأخرى ألقي لهما ما نضج من اللحم، يأكلان ويكملان حديثهما الجميل .

في اليوم التالي حين عدنا كان سعود قد جمّع خوصا كثيرا من زور النخيل وأيضا استخرج الكثير من الليف اليابس ونقعه في الماء، مساء قام بتفتيت الليف إلى قطع صغيرة، كان يلف بعضها ببعض صانعا منها حبالا طويلة، كانت يداه تعملان بينما لسانه يتغنى بالشعر.

اليوم الذي تلاه اصطدنا أربع قنائص وكان لزاماً علينا أن نذهب بها إلى سوق قرية مجاورة، نستطيع أن نصعد عقبة وحيدة قريبة من المكان اختصارا لنهبط ناحيتها، علقت قنيصتين على كتفي بينما علق عمي قنيصتيه، صعدنا عقبة سام وهبطنا إلى السوق، بعنا الوعول واشترينا ما نحتاج إليه للرحلة، ثم عدنا أدراجنا، وصلنا قُبيل الغروب، كان سعود قد بدأ في سرد الخوص بعد أن نقعه في الماء ليصبح ليّنا .

عندما يقوم سعود قبيل الفجر، كان يتوضأ ثم يصلي ركعتين ويبدأ في قراءة القرآن، أصحو على صوته، ذلك الصوت الهادئ والجميل الذي يأخذك شيئا فشيئا من أصقاع الحلم حتى يقف بك عند باب الملكوت الصامت في تلك البقعة الغارقة بين الجبال وبعد أن يقرأ ما حفظ يقوم فيؤذن

للصلاة، يمتد صوته بعيدا تأخذه سفوح الجبال فيتردد صداه ولم يكن منا نحن الذين تعودنا أن نقوم ونبدأ في صلاتنا بلا أذان عندما نأتي إلى تلك البقعة إلا الصمت والاندماج معه .

قال العم سيف لأخي:

- أنت زينة الجبال ..

ابتسم ولم يرد عليه بشيء .

أدرك ما يختلج في نفس العم سيف عندما يرانا نعامله بكل ذلك الاحترام والتقدير الأبوي، فهو لم يشك في يوم من الأيام أننا لسنا بأبنائه، ربما يكون قد حرم من الخلفة بعد موت طفله لكن هذا لا يعني أنه لم يبدله الله بخير منه هذا ما كنت أقرأه وأراه في عينيّ عمّي عندما نجلس معه أو نلتقي به .

اثنان في هذه الحياة لن أنسى لهما فضلا، هما من صنعا مني الرجل الذي يهوى الجبال ويهوى الجمال العم سيف قناص الوعول الأصيل بطباعه وأبوته وأخي سعود الذي لا تراه إلا منشغلا بكل جميل وخيّر في هذه الحياة .

في اليوم الأخير وعند رحلة العودة قفزت أفعى من تحت أقدام سعود وكادت أن تغرس أسنانها في جلده قفز إلى أعلى صخرة وكاد أن يسقط في بركة ضحلة لولا أني مسكته في اللحظة الأخيرة، بينما هرع العم سيف إلى قتل الأفعى، ثم رماها بعيدا عن الطريق .

يتفاءل القناصون ومرتادو الجبال من حطابين ورعاة وعسالين كلما صادفوا أفعى تقطع عليهم الطريق في الصباح الباكر، يقول العم سيف:

- الحيّة حياة ..

فالقناص يستبشر بصيد سيلقاه أمامه والحطّاب سيتأمل بحطب وفير

وربما يحلم بشجرة كاملة قد يبست وحان احتطابها والراعي سيبحث عن أماكن الحشائش والأعشاب الجبلية التي سترعى منها أغنامه والعسال سوف يهيء القربة التي سيملأها بالعسل عن آخرها، وكلما كانت الحية قريبة من الشخص ومن أقدامه كان مباركا ومحظوظا .

تعلمت ذلك من عادات الناس لذلك كنت أنظر إلى عمي وأقرأ منه تفسيره لما حدث مع سعود فهو ليس مثلنا، ليس بالقناص وليس بالعسّال أيضا، اقتربت منه، سألته هامسا:

- مو تفسيرك عمّي؟

فهم ما كنت أقصد نظر إلي وابتسم، قال:

- ما أعرف .

قد يكون صادقا وقد يخبئ شيئا يريد مني أن أكتشفه بنفسي لكن طالت الرحلة حتى وصلنا إلى تخوم البلد ولم يحدث شيء، كنت أنتظر بفارغ الصبر شيئا ما أستطيع منه قراءة ما حدث ولكي أصدق ما يتحدث عنه الناس عن الأفاعي وأسرارها وعندما وصلنا إلى البيت كانت الأخبار مع أمي فلقد جاء المعلم سلطان يسأل عن سعود ومتى سيجيء من الجبال؟ الذي أخبرها بالطبع عن طلب الفقهاء له في نزوى، قالت له:

- يقولك المعلم سلطان أوين انته مبغاي فنزوى .

كان وقع الفرح شديدا على سعود وكان الحزن يخيم على وجه أمي فبعد أن ذهب أبونا لم يكن بقربها إلا هو، يعتني بمال أبيه طوال الوقت ويساعدها في قضاء حوائج البيت والآن سيختفي هو الآخر بعيدا عنها تحت أي مسمى.

نظر العم سيف ناحيتي وغمز لي ففهمت مقصده، وعادت بي الصورة إلى أقدام أخي سعود التي كادت أن تطأ الأفعى بين أحجار الوادي، ولكن من سيعتني بالمال؟

هذا السؤال كان حاضرا وان لم يسأله أحد مباشرة، فأنا تكفلت بالقنص وبيع الوعول وإعطاء أمي القروش التي كنت أحصل عليها لتتصرف بها كما تشاء ولكن لم تكن مهمتي أن أعتني بالنخيل والسقاية ولم تكن لي تجربة أبدا حتى في طلوع أصغر النخلات في ضواحينا .

انتظرنا المعلم سلطان حتى جاء ثانية وأخبر عمي بما حدث لقد طلب القائمون على مدرسة الإمام أن يبعث إليهم بسعود ليختبروه في أمور قراءة القرآن ليجيزوه كمساعد للمعلم سلطان في قرية مس والقرى المجاورة لها وبذلك يحتاج أن يسافر سعود لبضعة أيام حتى يجتاز الامتحان .

هدأ بال أمي وتنفست الصعداء فهي مثلما تريد لابنها أن يستزيد من العلوم وأن يكون رجلاً مهما ويشار إليه بالبنان إلا أنها في الوقت ذاته تنظر إلى حالنا والحياة الفقيرة التي لا تعني شيئاً لها أن يستزيد ولدها علما وهو لا يجد قوت يومه ولا قوت عائلته ثم أن الفراغ الذي خلفه أبي أخافها أن تفقد ولدها بعده.

بعد أيام سافر سعود بصحبة المعلم سلطان إلى نزوى وبقيت أنا في البلدة عاد إلينا سعود بعد ستة أشهر قضاها بعيدا عنا وقتها كنت انا قد تحولت في تلك الفترة شيئا فشيئا إلى بيدار .

تعلمت أمور الفلاحة وصعود النخيل، تعلمت كيف أقيس أثر الظل ومتى يكون موعد ماء الفلج حاضرا، اقتربت أكثر من الأرض، من طينها وحشائشها وحشراتها، حرثتها وقلبت تربتها، مشيت في مائها العكر، قطفت ثمارها واستظللت بظلالها، ثم حفظت مطالع النجوم في ليلها واستمعت إلى همس الجنيات في العتمة .

عامرة وعميرة، الأختان الجميلتان والهادئتان لا أراهما إلا بمعزل عن الآخرين، تجلسان قرب بعضهما البعض، تتهامسان ولا أفقه ما تقولان

وعندما أطلب من إحداهما أن تخبرني، تضحكان ثم تهربان من المكان .

صباح كل يوم تذهبان وترقطان ما تساقط من ثمر النخل ثم تتعلمان القرآن في مدرسة المعلم سلطان وتعودان بعدها إلى البيت.

وفي المساء بعد ان تكونا انهيا بعض مشاغل المنزل غالبا ما كانتا تلعبان في الأرجوحة المعلقة على أغصان اللمباة وكانتا ترددان اناشيد وأغاني حفظنها من أمي.

كنّا نذهب معا إلى جني ثمار النخيل، أنا وعمي وزوجته وأمي وعامرة وعميرة، كنت أصعد إلى النخلة وأجز العذوق وأرميها وهم يقومون بجمع العذوق وخرطها ولملمة ما تناثر على الأرض.

كان عمي يمازح عامرة، يلقي إليها ببعض الكلمات التي تجعلها تحمرّ خجلا فتندس خلف لحاف أمي المزركش، أما عميرة فكانت حاضرة بصمت، منهمكة في عملها، تدرك من الوهلة الأولى أنها لا تكترث بكل الحكايات والكلام الذي يقال،حاول عمي أن يغضبها أو يضحكها ولم يفلح، كانت مثل جذع النخلة بكماء صماء، قال لها بعد أن تعب:

- هوه عليش، انتيه حشا ما آدمية .

بعد عودة سعود من رحلة الامتحان طلب منه الإمام أن يعمل معه ولكنه رفض، يكفيه أنه يدرك القراءة والكتابة ولا يريد أن يبتعد أكثر عن قريته، لذلك عاد إلى حياته الأولى يعمل بيداراً في حقول أهالي القرية، عاد ليساعد المعلم في المدرسة، عاد ليكمل طريق المحبة التي بدأها في لملمة أعمامه المتخاصمين دائما .

بدأت أشعر بالملل يسري في نفسي شيئاً فشيئاً، أشتقت للقمم التي أشرف منها على الأمكنة، والنسيم الذي يحمل لي من برودتها هدايا الوصول، تلك القمم التي تشبه في حدتها أسهما مصوبة إلى فوق، من هناك أرى العالم

كله يمتد بقيعانه وجباله وسيوحه وصحاريه الممتدة إلى أبعد مدى .

- غايتنا ..

قلت لعمي، قهقه وقال :

- زمّ زادك .

ثم عدنا إلى الجبال، طاردنا الوعول من وادٍ إلى آخر، صعدنا القمم، شربنا المياه العذبة التي تنبع من تحت صخور الجبال وكنا نعود محملين بالغنائم تارة وتارة أخرى نعود خاليي الوفاض، لكننا ما نلبث أن نذهب مرّة أخرى بمعية رفقاء يختارهم العم سيف أو لوحدنا، فلا حياة لنا إلا في ذلك العالم .

شعرت أن كل ما أمر به يرقص مرحّباً، خرير الماء بين الحصى وصخور الصفا، أشجار العسبق تعزف بأصابعها النحيلة على أوتار الريح، زهور شجر القفص تبعث رنينها مثل أجراس صغيرة، النحل الطائر من أماكن وروده على الرملة الرطبة صوب خلاياه المعلقة في أعالي الجبال، تلصص الوعول من البعيد .

الحياة كانت مأهولة بكل شيء، كل شيء ينتظرنا لتنبعث الحياة في المكان مرّة أخرى ولا طعم للدخان ولا للشواء إلا في تلك الوديان البعيدة، ثم أن رائحة القهوة التي تسافر بعيدا، تقطع المسافات لعل قناصا متعبا يحمل قنيصته أو خيبته سيأوي إلينا لنقتسم المكان والزمان.

المكان هنا ملك للجميع، يتسع لكل القناصين القادمين من القرى والأماكن البعيدة ويكفي أن نشرب بعض الفناجين مع الآخرين حتى يكونوا أصحابا تمتد صحبتنا بعد ذلك إلى الأبد، فقط لأنهم جاءوا إلى هذا المكان حبا في المغامرة والبحث عن حكاية جديدة من الحكايات التي لا تنتهي أبدا عن القنص والمفاجآت العجيبة .

ذهب عمي إلى مطرح ليشتري لنا سمكا مملحا لأن الصيف قد حان وبقيت في القرية وحيدا لكن ود مفتاح أصرّ أن أرافقه في رحلة القنص التي يحاول أن يجهز لها تلك الأيام، جاءني إلى البيت، وألح عليّ أن أذهب معه، ود مفتاح هذا له أسلوبه ولن يتركك إلا وقد اقتنعت بما يريد، ولأنني شعرت بالملل من الجلوس في البلدة بلا عمل وافقت على الذهاب معه .

كانت رحلتنا إلى وادي المزارع ووادي خب الشيخ، احتجنا من الوقت حتى نصل إلى هناك يومين متتاليين، كنا نمشي فإذا جاءت الظهيرة توقفنا وبدأنا في عمل الغداء ثم ننام قيلولتنا، بعدها نكمل مشوارَنا صاعدين إلى وادي مزارع وفي نهاية اليوم التالي وصلنا هناك تحت شجرة سمر كبيرة، وضعنا متاعنا وجهزنا المكان للمبيت .

وادي المزارع أحد الوديان الرئيسة التي ترفد وادي قعبت، فيه آثار مزرعين كبيرين، كل مزرع في مساحة قرية صغيرة، بقيت سواقيه المبنية بالحصى والجصّ كما هي حتى تخطيط الزراعة القديم ما يزال كما هو، والمزرع العلوي أكبر مساحة بقليل من المزرع الحدري .

لا يتذكر أحد من أبناء القرية ولا القرى المجاورة من أسس هذين المزرعين ولا متى زرعا، تبدو الأرض بآثارها قديمة جدا، وبرغم الماء المتوفر طوال العام في ذلك المكان إلا أنه لم يعد أحد إعمار المزرعين بل ظلا كما هما، وكأن لعنة حلت على المكان منذ القدم، فترك المكان أطلالا ولم يزرع إلى الأبد.

بعد ثلاثة أيام من المطر المستمر، نبتت أعشاب الغنيبا في أرجاء أرض المزرع الحدري، حيث كنّا نقيم ولأن الغنّيبا نبات لذيذ حين يقطّع ويعصر له بعض الليمون ويحلى بالملح وبدقيق سمك القاشع فهذا ما سيجنبنا التفكير ما سنتعشى اليوم .

اقتلعت الكثير من الغنّيبا وقطفت أوراقها، أضفت لها دقيق القاشع والملح ثم عصرت عليها ثلاث ليمونات فصارت وجبة جاهزة، يومها تلذذنا بعشاء رائع ولم يسكت ود مفتاح حتى منتصف الليل من مدح تلك الوجبة، لكن يبدو ان الملح كان كثيرا لاننا شربنا ماء كثيراً.

صحوتُ في العتمة بعد ساعات والدنيا تدور بي، كان رأسي ثقيلاً، قمت من مكاني أحاول المشي مسافة قصيرة لأنني أحسست بأنني قد أتقيأ، كان المغص على أشده وكان الدوار يؤرجحني فلا أستطيع الوقوف لبرهة، وما هي إلا لحظات حتى تدفق كل ما في بطني من ماء وأكل، تقيأته كله وسقطت على الأرض من الإعياء .

استيقظ ود مفتاح على زفيري، قام من مكانه، رآني على حالتي التي يرثى لها، مسك رأسي وضغط عليه، كان أنيني يتردد في تلك الليلة الساكنة على السفوح القريبة، سحبني ود مفتاح إلى المرقد، ثم صب على رأسي بعض الماء، خفّ الدوار قليلاً، شعرت بأنني سأموت، وبأن أمعائي ستندلق خارجا من شدة الشعور بالتقيؤ في كل لحظة، طلبت منه أن يحمّي السكين على الجمر، ويكوي قمة رأسي، لقد أدركت بأن عشاء الغنيبا قد أضر بي، وضع السكين في الجمر حتى احمرّت، ثم قرّبها من قمة رأسي ووسمني بها، فسقطت على الأرض من شدة الحرق وشدة الإعياء، نمت في مكاني ولم أستيقظ إلا مع طلوع الشمس، كان الدوار قد ذهب، شعرت بالجوع ينخر بطني، قمت من مكاني وأخذت قبضة من التمر.

لا يدري المرء ماذا يلاقي في طريقه، المفاجآت تأتي دون مبرر، وتذهب أيضا لوحدها، هكذا تماما، وأتساءل وما زلت أتساءل، إن كانت الغنيبا قد أضرت بي، فود مفتاح أيضا أكل منها ولكن ها هو مثل الوعل يقفز من صخرة إلى أخرى دون أن يصيبه شيء.

يقول أحد الشياب بأن النار هي سرّ الحياة ويبرر ذلك بالقول المأثور بأن آخر العلاج الكي، هكذا عادت لي الحياة إذن، بالنار، وبعد أن كنت على وشك أن أفلح روحي بين حصى الوادي .

المفاجآت تأتي وتذهب، مفاجآت تجعلك على حافة الحياة، ومفاجآت تتذكرها كل حين من طرافتها، برغم من الألم الذي يحيط بها، ففي عصر اليوم التالي أظلمت الدنيا، امتلأت السماء بالغيوم، وما هي إلا لحظات حتى أبرقت وأرعدت وليس في المكان كهف نأوي إليه هربا من شدة الريح والمطر، قال لي ود مفتاح:

- هين نروح عن السيل؟

قلت له:

- ربك ما يضيّع عبده .

هطل المطر غزيرا، التجأنا نحمي أنفسنا من شدة المطر تحت شجرة قفص، أدخلنا رأسينا وبقي ظهرنا بالخارج عرضة للماء الهابط من السماء، كل قطرة توخز اللحم وكأنها إبر صغيرة لكننا صبرنا، لم يكن بمقدورنا أن نفعل شيئا آخر. بعد أن هدأت العاصفة التفت إلي ود مفتاح وقال لي:

- تقول الله ما يضيّع عبده؟ وضيّعه ...

قالها بألم وسخرية وكنت كلما أردت أن أمازح ود مفتاح أعيد إليه سيرة تلك الحادثة، حتى يقول لي: وضيّعه ... ساعتها يضحك وهو يشتمني ويتهمني بالتواطؤ في ما أصابه .

هكذا هي الحياة هنا بين هذه الجبال، الانسان عرضة لكل شيء ولأي شيء، فقد ينام على رملة ويصحو ليلا وقد زحفت إليه أفعى واندست في فراشه وقد تسري عقرب وتقف على إصبع قدمه ومع أول حركة منه تغرز إبرتها في لحمه لينهض راقصا من الم اللدغة.

أن تذهب إلى الجبال، يعني أن تصير كائنا جبليا متوحشا، تفهم ما تعني لك الأصوات من حولك وما تعني حركة الحشرات والطيور، حتى حفيف الشجر، لابد لك من قراءة ما يدور في المكان، فالظلال تقول لك شيئا وزعيق الريح على السفوح يخبرك بالحكاية وفي الليل تعوي الثعالب متنبئة بما سيصير غدا أو أن تسهر على صوت البومة فلا تستطيع النوم وما عليك إلا أن تلقم بندقيتك رصاصة وتصوب ناحية الصوت حتى تسكتها عن ذلك النعيب المتواصل الذي يقلق رقدتك وعليك أن تفتح أذنيك وعينيك لترى الحياة من حولك مكتملة في كل شيء .

الفصل الثالث

(1)

بحث القنّاص صالح بن شيخان عن تيس الوعل في كل مكان، دخل شغف عتّاب، قصّ أثره عند إحدى الأحواض الجبلية حين نزل ليشرب ويملأ قربته وهو في طريقه الى وادي مقدسي، عثر على آثار أقدامه في الرمل وبعض من وبره طافيا على الماء، بدا للقناص أن الوعل قد استحم في الحوض وخرج من الجانب الآخر ثم صعد الشرجة، دون أن يغير مساره .

سلك القنّاص مسار الوعل وفي وسط الشرجة شاهد لحاء شجرة القفص مخدوشا فعرف بأن الوعل قد حكه بقرنيه، ثم وجد وبره في مربض يطل على القرية حين وصل إلى القمة. إذن كان الوعل هنا؟ قال لنفسه وهو يجلس بالقرب من المرقد. جسّ الأرض بإصبعه فدللت طراوة التربة على حداثة المبيت، جمع شيئا من الوبر بين أصابعه، تلمس خشونته، رفعه إلى أنفه ثم أغمض عينيه وشم الوبر بعمق، الرائحة ما زالت طازجة وكأن الوبر تساقط قبل قليل، قاس مساحة المربض بكفه، فوجد إنه أكبر من حجم مرابض عناز الوعول، ابتسم وهو يحدث نفسه، تيس كبير! أين سأجدك ؟

رفع رأسه ليرى منظر القرية، رأي بيته والمكان الذي تعود أن يجلس فيه ساعة العصر، -لو راقبته في الأيام الماضية لوجدته حتماً- قال. لم يكن المكان بعيداً، رفع منظاره وصوبه إلى القرية، في تلك الساعة من الظهيرة لم يكد يلمح أحداً يتحرك في الخارج. وقف ليستطلع ما حوله، تيس الوعل لا يفارق أمكنته الا نادرا، قد يكون بالجوار وفي هذا الوقت الممحل من السنة،

حيث جفت الأحواض والبرك في الوديان ولم يبق الا الكبيرة والتي تمدها الينابيع المنبثقة من جسد الجبل، لابد ان يعود، حتماً سيعود. قال يحدث ذاته وهو يستكشف بمنظاره المكان من حوله .

بدأت الريح بالخفوت، أكلت شمس الظهيرة من جسد القنّاص، وأنهكته حرارتها، شعر بيباس في حلقه، رفع القربة من تحت إبطه وفتح فمها، دلق قطرات منها في جوفه، سوف أعود، قال، نظر إلى الأسفل، سأجد مكانا مناسبا للرصد، الوعل هنا، هو قريب مني إذن، لا بأس، لو اصطدته لتحققت أمنيتي.

في صباح اليوم التالي جلس القنّاص على ضفة الحوض الصخريّ يزيح الشوائب الطافية على صفحة الماء ويملأ القربة، نظر حوله، لم يلحظ حدوث شيئ جديد في المكان منذ البارحة، حمل القربة واتجه باحثا عن مرصد يستطيع منه كشف الأمكنة، وترقب أية تحركات من حوله، وجد ضالته هناك، وذهب ليترصد فيه.

ترصد الوعل عند الحوض ثلاثة أيام متتالية بأكملها، جلس متخفيا تحت أشجار القطف وانتظر بذات الهيئة، أحيانا يجلس القرفصاء، وأخرى يتكئ على ساعده بعد أن يمدد رجليه كلما شعر بتنمل أقدامه من الجلوس .

مرّ الصباح بهدوءٍ وبطءٍ شديد، ارتفعت الشمس عن الجبال، انكمشت الظلال وتآكل ظل الجبل وانزوى إلى الجذع، سمع صوت حوافر تقترب منه، تلفت بحذر دون أن يفقد مظهره الجمود الذي كان عليه، اقترب صوت الأقدام أكثر، دق قلبه وتدفق الدم، حاول ضبط نفسه قليلا، تأهب بوضع يده على خشبة البندقية، اقترب الصوت أكثر، تأكد من مصدره، الصوت يصدر عن حوافر كائن جبليّ قادم من الجهة الغربية للوادي .

الحيوانات الجبلية لا تطيق العطش،، ولذلك حسب خبرته فأن الوعل سيكون قريبا جدا من حوض الماء هناك، وها هو يرى كل شيء قد حوله الحر الشديد إلى هشيم، لقد جفّ الوادي ويبست البرك، تطايرت الطحالب الميتة مع تيارات الهواء، تحولت إلى غبار وبقي أثرها على الصخر، العطش جلب حيوانا ما، ظن القنّاص بأنه تيس الوعل، لكن من نخرة واحدة تبين أنه إحدى الحمر الجبلية .

قال محدثا نفسه وهو يرقب الحمار يباعد بين ساقيه ويشرب من ماء الحوض، الحيوان الجبليّ يأتي بحيوان جبليّ آخر، هذا الحمار سيأتي بالوعل، سيشعره بالأمان. تمنى أن يبقى الحمار طويلا لكنه بعد أن شرب وملأ معدته ، نهق نهقة ترددت في الأرجاء ثم انسحب من المكان سريعا، عائدا إلى السفوح الجبلية العالية، ومع صعوده كانت الحجارة تتدحرج من تحت أقدامه.

مرّ النهار، لم يحدث شيئا، في الظهيرة استطاع أن يلف جسده تحت شجرة قطف متشابكة الأغصان، وفرت ظلاً كافياً لجسده، تناول بعض الخبز ودلق جرعات من الماء، وضع عمامته على حجر وتوسدها، أغمض عينيه وأبقى ذهنه وسمعه مفتوحين، الأصوات جلية ومسموعة، أصوات بعيدة، وأصوات على بعد خطوات منه، صوت دبور أسود يحوم فوق أغصان شجرة القفص، حفيف الريح وهي تخشخش الثمار القفص الجافّة ، سوف تنفجر ريح المساء التي لا يحبها بعد لحظات وسيعم ضجيجها وسيخفي الكثير من الأصوات .

بقى القنّاص مغمضا عينيه وهو يتتبع صوت دحرجة حجر سقط نحو الوادي حتى النهاية، قال ممنيا نفسه، كل حجر يسقط، يتبعه حجر، تتبع حجراً آخر، أنصت كثيرا لكن لم يسقط شيئ، فجأة سمع همهة خافتة، تلاشى الصوت ولم يعد مرّة أخرى، وفكر ان هذا الصوت قد نبع من داخله

لأن الإنسان في كثير من الأحيان يسمع أصواتا تكون واضحة لكنها ليست موجودة في الواقع، ربما تخيلها القنّاص من شدة إنصاته وتركيزه.

توسطت الشمس كبد السماء فتوقفت الحركة في كل شيء ودخلت الكائنات في سبات عميق هربا من حرارة الشمس اللاسعة، وحده القنّاص تحت شجرة القطف ملتفا على نفسه، نظر إلى قمة الجبل من خلال الأغصان وقد احتل العرق جبينه.

في عمق ذلك السكون تحدث ضجة كبيرة، ثمة ركض، خطوات سريعة ناحية الحوض، رفع القنّاص رأسه ليرى من الذي طرق المكان، هو يعرف بأن هذه الخطوات ليست للوعل، الوعل يمشي بهدوء تام، يهبط من الأعالي ببطء ويطرق المكان بخفة، لا يركض أو يستعجل وكأن الوقت كله له، رأى قطيعا من الأغنام تركض ناحية الحوض وتساءل ترى من أين أتى ذلك القطيع؟

ملأت الأغنام المكان ضجيجا بثغائها كأنها تجلب إليها ما تبقى من القطيع، سمع ايضا ركضا آخرا قادما، ثمة شياه مع خرافها الصغار وصلت متاخرة، التفّ الجميع حول الماء ثم استكانوا إلى ظلال الجبل الخفيفة.

شعر بسعادة تملأ نفسه لهذه المصادفة الوعل لا يخاف من الشياه بل يقترب منها كثيرا، ولديه الكثير من الحكايات عن الرعاة الذين وجدوا وعولا قد اختلطت مع أغنامهم عندما عادت إلى حظائرها في المساء. قد يأتي الوعل، يأنس المكان ويهبط هكذا فكر. لكن طال الوقت ولم يرَ شيئا .

بعد أن مالت الشمس قليلا بدأت الريح في ترحالها المسائي، هزّت ثمار شجرة القفص، فانتبه لوشوشتها، قام ودخل الشرجة التي تفضي إلى الحوض.كان عليه ان يراقب طريدته في هذا الوقت من مكان مرتفع، اقترب من الحوض فقامت الأغنام من مرابضها، ركضت خائفة ثم دخلت في عمق الوادي .

أخذ حفنة ماء بين كفّيه وبلل بها وجهه وأخذ أخرى دلقها على رأسه، توضأ ووقف ليصلي، بعدها تناول أشياءه وارتقى وسط الشرجة وغاص تحت صخرة كبيرة ليراقب فريسته من هناك بعيدا عن ضجيج الريح .

تمنى أن يشرب فنجانا من القهوة في تلك اللحظة، تذكر أنه لن يستطيع أن يوقد نارا خوفا من أن تصل رائحتها لأنف التيس فيقفل راجعا، تذكر حبّات القهوة التي خبّأها في جيب قميصه، أدخل يده وأخرج بعضها وقضمها، كفته مرارتها ورائحتها عن التفكير في فنجان القهوة الذي تمناه، لكن صوت تكسر حبات القهوه بين أسنانه كان يطغي على الأصوات الخارجية الأخرى فتوقف بسرعة، وبدأ يقضم ببطء وهو يصغي بسمعه إلى الجوار، لعل أحدا ما سيطرق المكان .

في المساء تشتد الريح حين تميل الشمس ناحية المغيب وتبدأ الظلال في التمدد، تهبط الشياه من الأعالي بثغائها المسموع من البعيد نحو حظائرها قريبا من القرية، يأكله الوقت مترقباً فريسته، والطريدة في غيابها. يقوم من مكانه وهو يقول لنفسه: يوم ولى في الترقب ويوم آخر سيجيء .

في اليوم التالي وقف على القمة المقابلة، صوب منظاره إلى الجبال من حوله، راقب منحدراتها وأشجارها وحجارتها الكبيرة وكهوفها، بحث في كل الجوانب آملاً بأن يصادف الوعل وهو يرعى هنا أو هناك او يكون جالسا في أي مكان لكن جلد الوعل يشبه لون الجبل ولن يستطيع رؤيته إلا إذا كان متحركا، أما في سباته فيبدو الأمر صعباً جدا ،غير أن القنّاص كان يحاول ممنياً نفسه، ولم لا فمنظاره يقرب الأشياء البعيدة ليرى من خلاله الحشرات الصغيرة وهي تحوم حول الأشجار ويرى البعوض الراقص عند مداخل الكهوف، فكيف لا يستطيع أن يرى وعلا ضخما اذ وجد، كل ما يحتاجه التركيز فقط.

لم يحدث شيء في اليوم الثاني، في اليوم الثالث غيّمت السماء ساعة الظهيرة فأذنت بسقوط المطر لكن القنّاص بالرغم من ذلك ظل في مكانه تحت الأشجار، وبعد نصف ساعة زمجر الرعد ثم عصفت الريح بالأشجار القريبة وبدأ هطول المطر الشديد ركض هاربا ليختبئ منه في كهف قريب وبلحظات غرق المكان، سمع شلالات الماء النازلة من وسط الشرجة، اقترب السيل من المكان وغطى الوادي، جلس في مكانه حتى خفت حدة المطر ثم خرج ليراقب الأرجاء وهو يدرك أن لا فائدة من الترصد بعد المطر، فالوعول تلجأ إلى القمم هربا من اجتياح السيل .

عاد إلى بيته وفي العقبة التي تفضي به إلى القرية، وقف في أعلى الدرب ليستريح، تناول منظاره وصوبه نحو شغف عتّاب، هل كانت مصادفة أن يضع منظاره على ذلك الكهف الكائن وسط الجبل؟ جسّ بإصبعه مضبط الرؤية فرأى الوعل واقفا أمام مدخل الكهف .

جلس ينظر اليه من مكانه وسرت في صدره حسرة، تأسف كثيرا إذ كان هناك طوال الوقت قريبا من التيس يراقبه من الأعلى في ذلك الكهف المطل على الوادي، هل لهذا السبب لم ينزل في هذه الأيام إلى الماء ليشرب؟ كثيرة هي الأسئلة التي ألقت برحلها على ناصية عقله .

تتبعه وهو يخرج من الكهف، صعد بهدوء بدون توقف لم يلتفت، اجتاز القمة واختفى خلفها، رجع القنّاص إلى قريته ولم يخرج إلى الجبال مدة طويلة، لم يحن الوقت بعد للقاء ذلك التيس الحاضر الغائب. .

***

في بعض الأحيان تختفي الوعول من المكان، تترك سكنها وتغيب بدون ترك أثر ولا أحد يعرف ما الذي يحدث لها، لا توجد مرابض لها على

القمم والمنحدرات، ولا يجدي بحث القنّاصين عنها نفعاً، يصير جواب كل قنّاص عند سؤاله عمّا وجده أنه لم يجد شيئاً. لماذا تختفي فجأة؟

القنّاص صالح بن شيخان مثله كمثل الآخرين، دائما ما يبحث عن السبب. لكنه وجد تفسيرات الاخرين غير مقنعة، فبعضهم ربط اختفاء الوعول بحراسة الجن لها، وبعض آخر تحدث عن هجرتها إلى مواقع جديدة، وعزا بعضهم اختفاءها إلى وباء يصيبها فتمرض وتموت ثم تاكلها سباع الجبل .

اختفت الوعول لخمس سنوات متتالية، لم يعثر بن شيخان على دليل واحد يشير الى وجودها بعد بحثه الذي امتد من أقرب جبل حتى وصل الى رؤوس الوديان، لكنه لم يصدق فكرة الوباء، فلو كانت حقا لظل من اجسادها شيئا في مكان ما.

على الجانب الغربيّ من الوادي يقف الجبل الأبيض شامخا بأشجاره الكثيفة، محتضنا طيورا وظباء وأغنام الرعاة المتنقلين بحثا عن العشب. لكنه عصي على القنّاصين، فبرغم ضخامته الا انه لا أثر لقطرة ماء في جوانبه لأن تربته الطينية تتشربه ولا يبقى منه شيئا .

بعد يأس ذهب القنّاص بحثا عن العسل الجبليّ، ارتحل على طول وادي المزارع، بدأ عمله في البحث عن العسل في كل شجرة وبين الحجارة الكبيرة والكهوف، منذ شروق الشمس وحتى الظهيرة ،بعدها استسلم للراحة بقيلولة قصيرة انتهت بميل الشمس من أعلى الرأس، ثم قام ثانية ليصعد جبالا أخرى .

في تلك السنة وجد الكثير من العسل الجبلي في خلايا النحل الذي ملأ به أوعية للخزن وعندما عاد ملأ منها القناني التي سوف يبيعها في الأسواق .

لن ينسى القنّاص تلك الرحلة التي اعتبرها من أجمل رحلاته بسبب حدوث شيء لن يتكرر أبدا، ففي أحد أيام الرحلة صعد شرجة يبحث عن خلية نحل، ارتقى الجبل بدون أن يحضر معه بندقيته، وحين جلس ليستريح من تعب الصعود التفت يسارا وكانت المفاجأة ان تيس الوعل يرعى في الجبل المقابل.

شعر القنّاص بالحرارة تسري في جسده كمن أصيب بحمى فجائية. كان تيس الوعل قريبا لدرجة أنه يرى تفاصيله الصغيرة بوضوح، خط الشعر الأسود الذي يتوسط ظهره، فقرات قرنيه، لحيته، عينيه الصغيرتين وقوائمه القوية. لام نفسه لتهاونه في أخذ السلاح وأطلق تنهيدة حارة. تذكر مقولة سمعها من كبار السن –السلاح تحمله دوما، لكنك لا تستعمله إلا وقت الحاجة–. وها هو وقت الحاجة الذي نادرا ما يتكرر، كان سلاحه هناك معلقا على الشجرة لا يمكن أن يصل إليه إلا إذا تحول هو ذاته وعلا .

نسي بن شيخان عمله الذي صعد لأجله، لم يكترث لخلايا النحل وجلس يراقب التيس مأخوذا بتفاصيله، رفع يديه كمن يملك بندقية، صوب ناحية الوعل وبإصبعه ضغط على الزناد، أطلق رصاصته وأخرج صوتا من بين أسنانه يشبه صوت الطلقة عندما تنطلق، لكن الوعل بقى يرعى غير مكترث به .

مالت الشمس نحو القمة واخذت الظلال تتمطى على الأرض. بقي الوعل في مكانه وبقي القنّاص ساندا ظهره على جسد الجبل يشاهد ما يحدث أمامه كمن يجلس أمام شاشة التلفاز مأخوذا بفلم جميل.

سمع القنّاص صوت دحرجة حجر صغير يسقط ويستقر في بطن الوادي، صوت خطوات سريعة تقترب، يرفع الوعل رأسه وينظر إلى القادم ناحيته يظهر تيس وعل ثاني أضخم من الآخر، يقترب من المكان مخرجا

لسانه صافقا بصوته. أشتدت الدهشة في نفس القنّاص فقد مرّت سنوات طويلة وهو يبحث عن وعل واحد، وها هو يرى أمامه وعلين .

ترك الوعل الذي كان يرعى من مكانه واقترب قليلا من التيس الكبير، وقف الآخر على قوائمه الخلفية ورفع رأسه عاليا، ثم نكس قرنيه ناطحا بهما التيس الأقل ضخامة، فتفادى الضربة التي كان يتوقعها بقرنيه. تراجع الوعل الكبير إلى الخلف، رفع قرنيه ثانية وضرب التيس الصغير ضربة شديدة أرجعته إلى الخلف، كاد يهوي من الأعالي لولا مناورته وتمكنه من عدم السقوط، تساقطت الحجارة من تحت أقدامه تدحرجت صخرة كبيرة كانت على الحافة، ملأ ضجيجها المكان وتردد صوت سقوطها بين السفوح. اشتد العراك بين الوعلين، التيس الكبير يهجم على خصمه فيتراجع الآخر ثم يهجم هجمة مرتدة، دون أن يستسلم أو يتنازل أحدهما للآخر عن المكان.

حدث كل هذا أمام بصر وسمع القنّاص الذي لا حول له ولا قوة إلا أن يظل جالسا مكانه وكأنه صار قطعة حجرية من ذلك الجبل، لم يشعر بتنمل رجليه من أثر الضغط على الحصى في جلسته غير المريحة، يكفي أنه يرى كل ذلك الجمال، وعلان يتناطحان في مكان ما كان يرى فيه اثرا لوعل منذ سنوات، وسرعان ماصارت الصورة اجمل وابهى واكثر اثارة، ثمة وعل ثالث يخرج من إحدى الشقوق، جلبته رياح العراك المثير، وقف بالقرب من حلبة التناطح وكأنه ينتظر النتيجة، حكّ ظهره بقرنيه، تلفت يمينا وتطلع ناحية الأعلى، أخرج لسانه وصفق بصوته، لم يكترث الوعلان الآخران بوجوده، بدت على احدهما علامات الإنهاك، ربما سيسقط من السفح متدحرجا حتى يصل قاع الوادي، اقترب الوعل الثالث كثيرا، وفجأة هجم بكل قوته ناطحا الوعلين، تفرقت الوعول ناظرة صوب بعضها، في تلك اللحظة، تحركت رجل القنّاص المتنملة لا إراديا واصطدمت بصخرة تدحرجت على المنحدر،

صوت الحجر شد انتباه الوعول فالتفتت متوجسة حيث كان القناص، ما ان رأته وهو يحاول لملمة رجله وإعادتها كما كانت، قفز أحد الوعول راكضا وجفل الآخران من حوله وتبعاه .

كما انبثقت الوعول فجأة من غيابها الطويل، ذهبت عميقا باتجاه غياب آخر تاركة خلفها آثار صراع كان يمكن ان تكون نهايتهم هنا على يد القناص لو كان سلاحه معه.

***

لا وقت أفضل من شهر سبتمبر من كل عام لرؤية الوعول راكضة في المنحدرات، وقت التناسل يجلب الذكور من مخابئها، تهبط إلى قاع الوادي أو تشرف على الأمكنة وقد جذبتها رائحة الأنثى العابقة في الأرجاء .

تنخفض الحرارة تدريجيا فيصير الهواء ألطف. اكتست المنحدرات بلون أخضر، تناثر الماء من أعالي الشلالات التي يطلق عليها القرويون الميابين، يصل الماء باردا إلى البرك في أسفل الشلالات التي تفضل الوعول الدخول وغسل أجسادها فيها، تشبثت الوعول بهذا العالم الصخري منذ القدم، اذ وجدت فيه ملجأ آمنا من البشر والحيوانات المفترسة فهو المكان الغنيّ بما يحتاجه الوعل الغارق في الصمت والعزلة .

ترعى أنثى الوعل على السفح، يمر عليها النسيم محملا بروائح قادمة من البعيد، ثمة قنّاص هناك في مكان ما، ثمة وعل آخر، أو ربما حيوان يتربص بعزلتها، تقف متسمرة وهي ترقب المكان الذي جاءت منه الريح، تصفق فيتردد صفيقها على السفوح. يقف تيس الوعل على قمة في الجبل المقابل للوادي، يصفق استجابة لها فتشعر ببعض الأمان، تنكس رأسها لتكمل قضم عشبة المحمّرة. يقترب أزيز طائرة عمودية تشق الفضاء، تمرّ قريبة من رأس الوعل فتخيفه، تركض العنز هابطة المنحدرات، لتختفي بين

ثناياها هربا من ذلك الصوت الغريب الذي لم تعهده، يختفي التيس أيضا من القمة المجاورة، يقطع وديانا ودروبا قبل أن يقف، بعد ان غابت الطائرة في الأفق حاملة ضجيجها بلا عودة .

في الدروب المتعرجة البعيدة عن القرى، هناك حيث السفوح والمنحدرات، يبحث القنّاص صالح بن شيخان عن طرائده كل سنة في هذا الوقت من العام. مرة ذهب إلى وادي الغيبر وجد مرابض الوعول الحديثة وتتبع آثار أقدامها عند موارد المياه، بدأ رحلته في المرة الأولى بصحبة شاب يدعى سلطان من أبناء عمومته، كان الشاب رغم حداثة سنّه يهوى الذهاب إلى الجبال وقضاء وقتا طويلا فيها. كان يذهب إلى القنّاص ويجلس معه في بيته ويلمح له في كل مرّة عن أمله في الصحبة، كان صالح ينظر إليه بنظرة فاحصة ثم يصمت .

اشترى سلطان فناجين معدنية جميلة وأهداها للقنّاص، وفي يوم آخر اقتنص وعلا صغيرا قدم له منه فخذا، أراد أن يتقرب إليه ليطمئن، في تلك الرحلة ذهب القنّاص بنفسه وطرق بيته مقترحا عليه أن يذهبا معا .

رافق ابن عمه كما رافق ود مفتاح من قبل، لكنه في الغالب يذهب لوحده، لأنه لا يحب أن يرتبط بأحد يقيد حريته في التنقل ويؤثر على اتخاذه القرار. فهو يستطيع أن يبقى لمدة أطول لو شاء، لا يشغله شيء لكن الآخرين دائما في ارتباط مع مشاغل الحياة الكثيرة .

تتبع القنّاص أثر الوعول الخارجة من قمة إلى أخرى، هبط وديانا وصعد عقبات كثيرة، زاده على ظهره ويده على الزناد، لا يكف ولا يهدأ عن كشف الأمكنة ورصدها بمنظاره، فكلما شاهد أثرا جديدا أو مربضا دق قلبه وراوده الأمل في لقاء تيس الوعل. كان زمن الأثر قريبا ربما صبيحة ذلك اليوم أو مساء البارحة، يعرف متى مرتّ الوعول في المكان ويعرف عددها

ومن الاثر يعرف جنسه ذكرا أم انثى، علمته السنين الكثيرة التي عاشها جريا خلف طرائده، تلك التفاصيل الدقيقة.

وقفت العنز على القمة المقابلة للمرصد الذي صُنع لقنص التيس، لقد بدأ موسم التزاوج، من هناك سمع القنّاص رِكض الوعول وصفيقها، كان يمشي في قاع الوادي وبالقرب منه على الضفة أحراش كثيفة من نخل وحلف، ركض ناحية الأحراش واختبأ فيها، راقب المنحدرات وأصغى لصوت تساقط الحجارة، الخطوات اقتربت أكثر، كان يرى العنز، حاول جذبها ناحيته، قبض كفيه ونفخ فيهما بفمه مصدرا صوتا يشبه صفيق الوعل، اختفت العنز من القمة، كرر الصفيق وانتظر، هو لا يريد العنز بعينها، لقد اقتنص العشرات منها، لقد وضعها كفخ لوقوع التيس. أدرك أن الوقت قد حان لخروج ذلك الماكر الجبليّ كما يسميه، لقد حلم به طوال حياته، تيس واحد فقط. لا أريد شيئا من هذه الجبال إلا أن تهبني تيسا واحدا أقتنصه وأعود.

على السفح المقابل البعيد عن مرمى بندقيته ظهر تيس الوعل وقد جذبه الصوت معتقدا بأن أنثى ترعى في القرب، دق قلب القنّاص وتسارعت انفاسه، نفخ في كفيه مرّة أخرى فتوقف التيس، حرك رأسه محاولا معرفة اتجاه مصدر الصوت، ثم خطا خطواته إلى الأمام متجها إلى المرصد حيث كان القنّاص مختبئا خلف شجرة حلف كثيفة، أتخذ مكانا واندس فيه يراقب السفوح من غير أن يراه الوعل

سمع دحرجة صخور وخطوات على يساره في السفح الآخر، ظهر وعل آخر ضخم بقرنين معقوفين قد سمع صوت الصفيق أيضا، اقترب الوعلان قليلا، صفق القنّاص مرة أخرى، أسند بندقيته متأهبا، ووضع إشارة التصويب في المنظار على جسد التيس، على قلبه مباشرة. انتظر حتى

يقترب أكثر، المنظار يقرّب المسافة البعيدة، لكن الرصاصة لن تصل بعد إلى ذلك المدى. هبط الوعلان باتجاهه، صفق مرّة أخرى وراقب تحرك الحيوانين، سمع صفيق قادم من خلفه، ظهرت عنز وهي تركض بالقرب منه متجهة إلى أسفل الوادي، رأى الوعلان العنز الصافقة فاتجها ناحيتها وهي تتابع ركضها ركضت الوعول خلفها مخلفة الغبار في المكان والحسرة في قلب القنّاص .

(2)

مع الغياب الطويل تتعود على فقدان حميمية الأشياء من حولك تلك التي كانت تزرع في داخلك حقولا من الجمال، لكن مع غياب أبي يزداد الشوق، ربما لم يكن غائبا قطعا أو ربما مارس هذه اللعبة من الغياب المؤقت ليعلمنا ما نحتاجه من أن لا نرتبط بالأشياء المحيطة في علاقة حب عميقة حتى إذا فقدناها يبقى تأثيرها علينا بسيطا جدا، أو ليعودنا على الانتظار، انتظاره الذي يطول أو يقصر، انتظاره الذي أراه في وجه أمي وعينيها الحزينتين، في نزقها أحيانا، وفي بكائها في العتمة تحت الفرصادة، تطلع الدرج خلسة ونحن نيام لتجلس هناك وحدها تنشج بصمت وتذرف الدموع ثم تعود لتنام بيننا دون أن نشعر بها .

كان النوم قد جافاني في احدى الليالي، استلقيت في فراشي وأغمضت عينيّ لكنني بقيت مستيقظا، في النهار حدث موقف تضايقت منه أمي لقد أسمعتها إحدى زوجات أعمامي كلاما فطر قلبها وهيج شجونها، لم أرها متعبة كما رأيتها ذلك اليوم. تجلس تحت ظل الليمونة وفي يدها إناء سكبت فيه بعض اللبن، ثم أخذت بعض الخبز وقطّعته إلى قطع صغيرة ونقعته في الإناء وبدأت تأكل ووجهها يحدق في قمة جبل جميجم، عيناها سارحتان، ومسحة الحزن تزداد شيئا فشيئا حتى يبدو أن وجهها غدا مظلماً.

لم أر أمي بهذه الحال الا يوم سافر أبي، صحوت في الليل على اثر خطواتها وهي تصعد الدرج، راقبتها خلسة، جلست تحت الفرصادة على جدار ساقية

الفلج وبدأت تنشج بخفوت حتى لا نسمعها ظلت هناك فترة، ثم هدأ نحيبها، وبقيت مكانها هادئة. وقفت مكاني اراقبها، تخدرت أطرافي ولم أستطع الحركة، كانت دموعي تتساقط ساخنة دون إرادتي، انسحبت من مكاني واستلقيت على فراشي. هبت نسمات باردة في تلك الساعة المتأخرة من الليل أشعرتني بالبرد فالتحفت. بعد لحظات سمعت وقع أقدام أمي، جاءت وتمددت بيننا، حرارة جسدها أشعرتني بالدفء، غرقت في النوم، وحلمت بقافلة من حمير تمرّ على وادينا، موغلة فيه، حتى تختفي بين الجبال، قافلة محملة بأشياء مغطاة ولا أحد يسوقها، وكان أبي هناك على ضفة الوادي يرقبها ويبتسم .

صبيحة اليوم التالي ذهبت مع سعود إلى آخر البلد، كان عليه أن يختار عذقا من كل نخلة من نخيل مقصورة الشيخ مرهون بن سالم، لأن وقت الجداد قد حان وسيأتي الشيخ مرهون بعائلته وخدّامه ليأخذوا التمر، ولا يتبقى في تلك النخيل إلا العذوق التي علّمها سعود ليأخذها أجرة له عن سقيه للنخيل .

أخبرت سعود بما حدث البارحة، كنت قد علمتُ من أختي عامرة بما قالته زوجة عمّي، أخبرته بما رأيت من حال أمّي في تلك الليلة، كان يستمع إليّ وهو صامت، وبعد أن أنهيت حديثي، نكس رأسه إلى الأرض ونكث ترابها بمنجله، رسم خطوطا واشكالا عديدة، ثم رفع رأسه ناحيتي وابتسم، قال لي: ما تهتم. قام من مكانه، وصعد نخلة عوّانة في صدر المقصورة وجلستُ على الأرض أنتظره، فناداني من فوق النخلة :

- طْلَعْ النخلة بو عندك، وعلّم أحسن عذق تشوفه .

قمت مبتهجا، صعدت النخلة، ثم صعدت نخلة أخرى إلى أن أكملنا وضع العلامات على عذوق النخيل كلها، كنّا نتسابق من يصعد أولا وينتهي من نخلته .

لا أعرف ما الذي حدث مع سعود وامرأة عمي بعد ذلك، لكنها جاءت قبيل الغروب، وألقت بجسدها معانقة أمي وطالبة منها أن تسامحها على ما قالته بالأمس لم تتمالك أمي نفسها وانخرطت في بكاء عميق، جعل امرأة عمي تبكي معها وتحلقت حولهما أختاي أيضا يبكيان لبكاء أمهما.

أسندت ظهري على جذع اللمباة، نكست رأسي وأنا أحاول أن أمنع دموعي التي هطلت رغما عني، لم أرغب أن يراني أحد باكيا، رفعت رأسي ونظرت نحو قمم الجبال، كانت الشمس تلقي بأشعتها الذهبية على القمم، مودعة كائناتها وتتركنا في حراسة العتمة، مترقبين الفجر ليبدأ نهار آخر من نهارات الوديان البعيدة.

أدرك تماما الآن حالة التأزم والصراع بين أبناء العمومة، كمية الضغائن والأحقاد القديمة التي يحملها كل واحد منا حتى بعد أن مات سببها ومسببوها لكن ما زلنا نحتفظ بتلك الذاكرة وذلك الإرث. العزلة أحيانا والابتعاد والنظر من فوق إلى الأشياء تجعلك ترى الأمور بكليتها دون أن تتدخل في مسارها كأنك تقف على قمة جبل وترى تحركات الوعول والقنائص في الأسفل وتتوقع مسلك كل قنيصة، في العزلة أيضاً ترى وتسمع ما يحدث، تدرك المنازعات والأقاويل، تسمع الحكايات تتقاذف إليك من كل صوب ثم ترسم الحكاية في مخيلتك بعيدا عن كل ذلك الهدير .

لا أعرف تماما ما سبب هذه الضغائن وكيف بدأ الحقد بين أعمامي، فمنذ صغري وأنا أستمع للحروب الكلامية بينهم، وفي هذه الحروب لا تعرف من المصيب ومن المخطئ، وكل منهم يريد ان يخرج منتصرا مهما كانت الخسائر.

تأتي أوقات تهدأ فيها رياح المشاكل وتخفت فيقترب أولاد العمومة من بعض أكثر، يتزاورون، يسهرون معا فاتحين حكايات الماضي الجميلة عما حدث معهم بطريقة طريفة، لدرجة أنه ترسخ في الذهن أن كل تلك المشاكل

والملاسنات الحادة سوف لن تعود بينهم. لكن مهما طالت هذه الهدنة، ستعود عاصفة الضغائن القديمة من جديد وتقتلع كل ما تم بناؤه من اواصر تقارب وتآلف، وكل مرة تشعر ان هذه العاصفة سوف تأخذنا الى هلاك اكيد وتفرقة لا يمكن ان تعيد اي آصرة بيننا.

أكثر ما يحزنني حين يلتقيني أحد أعمامي أمدّ يدي لأصافحه فيشيح بها بعيدا، لماذا؟ لأنني ابن شيخان، وبينه وبين أخيه ما بينهما، ليس أكثر جرحا من أن يتجاوزني وكأنه لا يعرفني وقد يسمعني كلمتين من كلامه الغنائي الذي سيرسخ في نفسي ولن أنساه حتى لو حاولت كيّ رأسي. قد تتأقلم مع هذه الحالات وتحتاط، ولكن هنالك من يلعب على الحبلين، فهو معك وضدك، يلتقيك ويعانقك من اجل ان يوقعك في كلماتك العابرة عن فلان، ثم يحمل تلك الكلمات بعد أن يزيد عليها شيئا من سمومه .

لست أعرف إن كانت كل العائلات بهذا القدر من الضغينة والفتنة والشرور كما عائلتي؟ وهل كل العمانيين هم عوائل خاسرة تعيش على الضغينة والبقاء في وجه العواصف بروح الأنانية الفجّة؟ ولماذا كل هذا؟

أقف على قمّة جبل المقصورة كما يحلو لي كلما كان لدي وقت فراغ ساعة العصر، متأملا هذه القرية بحاراتها. البشر في تلك الساعة مشغولون بجز القت والحشائش لأبقارهم والبعض منهم يسقي ماله، وآخرون ينظفون النخيل والضواحي من الزوائد، وأنا أرقب المكان من القمة كوعل، ليس لدي ضغينة على أحد، لقد غفرت كل شيء وفرغته من قلبي منذ زمن بعيد.

كما تُعوِّدُ الناس يعتادون عليك. أنا إنسان اعتزلت كل ما يحدث في القرية، فمنذ صغري وارتباطي بعلاقة مع عمي سيف وأنا بعيد عنهم. عندما أكون في الجبال لا هم لي إلا الطرائد الجميلة وتذوق لحومها الطرية وعندما أكون

في القرية لا أخرج إلا نادرا من البيت. لا أحد يعرف عني شيئا لذا كثرت الأقاويل من حولي فضربت بها عرض الجبال. حاول البعض أن يقترب مني فاصطدم بصمتي وانشغالي بأشيائي كبندقيتي أو منظاري، دون الالتفات إليه والاستماع إلى ما يقول. بعضهم يظل يثرثر ثم يقوم ويذهب، وبعضهم يقطع حكايته، ينفض ثوبه ويختفي. مع الوقت بقيت وحدي، لا يقترب مني إلا من أريد فقط، كود مفتاح وأخي سعود وعمي سيف، أما الآخرون فلقد تلاشوا تدريجيا، ربما وجدوني رجلا ميتا لا يكترث بما يقولونه، وصدقوني، صدقوني، ليتهم كانوا يحدثوني عن شيء يحبون فعله، إنما كانوا يأكلون بعضهم بنقلهم الحكايات والتي ضاعت من رأسي منذ زمن. كل حكاية تخرج مع طلقة نارية متوجهة صوب الغنيمة، وكما تستقر الرصاصة في رأس القنيصة، كما يموت الوعل، تموت الحكاية وتختفي مع صدى الطلقة في السفوح .

مرة تحدثت مع أخي بغضب، وأنا أراه يحاول التقرب إلى أعمامه، قلت له:

- ما يحتاج تتملق عمومتك.

كنت على وشك أن أنفجر في وجهه غضبا، نظر إليّ وابتسم ثم قال :

- تعرف شعرة معاوية؟

نظرت إليه مستفهما، لا أدرك ما يعنيه، قال:

- معاوية واحد من أصحاب الرسول عليه الصلاة والسلام، وكان خليفة على المسلمين، يقول: «إن بيني وبين الناس شعرة إذا أرخوا شددت وإذا شددت أرخوا»، أنا ما أحاول اتملقهم، لكني باغي أصلح بينهم باللين وبالرفق، يقول -صلى الله عليه وسلم-: «ما كان الرفق في شيء إلا زانه، ولا نُزع الرفق من شيء إلا شانه».

حاول أخي سعود جاهدا لكنه لم يفلح فهيهات أن تصلح الظل والعود أعوج. بالرغم من محاولات أخي سعود شبّ نزاع بين أعمامه سببه الأحقية في توزيع نصيبهم من الفلج في إحدى السنين المحلة، اجتمعوا عند مسجد الحمرية، وبدؤوا في الكلام والصراخ على من له الحق ومن له النصيب الأكبر، وعندما تدخل سعود في الكلام بينهم، لم يشعر إلا بالهراوة تسقط على رأسه من عمه مبروك، دارت به الدنيا وسقط على وجهه أرضا، مغشيا عليه، لم تمتد إليه يد واحدة من أياديهم، تنازعوا وهددوا بعضهم بعضا، وفضّوا اجتماعهم ثم ذهبوا إلى بيوتهم، وسعود مكانه، قد شُجّ رأسه وسال دمه على جدار الساقية ثم اختلط بماء الفلج .

مرّت عويش زوجة عمي سيف، فوجدته على تلك الحال، صرخت وولولت، سحبته بعيدا عن الفلج، ألصقت أذنها على صدره تستمع إلى دقات قلبه ،جست نبضه وهي تبكي وبعد أن تأكدت من أنه ما زال حيّا، ركضت إلى البيت. كان العم سيف مستلقيا بداخل العريش، رافعا رجلا على رجل ، ويترنم ببعض أبيات الشعر عن الوعول والقنائص اقتربت منه فسمع لهاثها وبكائها قام مصعوقا، لم تستطع إخباره وهي تجهش بالبكاء والعويل، كان يحاول تهدئتها، أمسك كتفيها وضغط عليهما قليلا، حاولت أن تتمالك نفسها وتخبره، وبين نشيجها والشهيق خرج الخبر أخيرا.

ركض العم سيف، قطع المكان في قفزات قليلة، قطع الوادي راكضا، ودخل إلى النخل ولم يتوقف إلا عند سعود وجده جالسا ويقبض على رأسه، عرف بأنها من أثر عصى غليضة، سأله والغضب يقدح من عينيه:

- من ضاربنك؟
- ما أعرف، ما دريت ولا علمت إلا بالسقحة على راسي .

أخذه إلى بيته، طلب من عويش أن تخلط بعضا من الكركم والملح مع قليل من الماء، وضع العجين على الشجّة، ثم لف رأسه بقطعة قماش نظيفة وطلب منه أن يرتاح، بعد أن أسند رأسه على مخدة .

ترك العم سيف أخي سعود في رعاية زوجته عويش ثم أخذ بندقيته وخرج، ذهب إلى العم سالم ووضع البندقية على رقبته، قال له:

- يا تخبرني من بو ضارب سعود، يا دمك هدر .

ارتجف العم سالم من الخوف فأخبره بما حدث، ذهب مسرعا إلى بيت أخيه مبروك، دخل عليه العريش وهو جالس أمام بسطة الغداء، وكأنه لم يفعل شيئا في الصباح، اقتحم عليه العم سيف المكان بسرعة، وتناول ذات الهراوة التي ضرب بها سعود وضرب العم مبروك على رأسه، وتتالت الضربات على الظهر والأطراف، سقط وجه مبروك متمرغا وسط بسطة الغداء وسال الدم وملأ الصحن وتفرق أولاده الصغار فزعين واندسوا خلف أمهم التي كانت تولول وتصيح، قال لها والشرر يتطاير من عينيه:

- قوليله زوجش، سعود ولدي، بو يطشه بماي، أطشه بنار .

علمت أمي فلم تدر ما تفعل، قامت ودارت في المكان ثم جلست، ثم قامت مرة أخرى. كانت تكرر قيامها وقعودها في أرجاء كثيرة من البيت، ثم ركضت إلى قفير من السعف معلق على وتد غُرِز في جذع اللمباة، واتجهت إلى موقد الخبز، أخذت الرماد المتكوم على الجانب وملأت به القفير، حملته على رأسها واتجهت مجتازة الوادي إلى الضفة الأخرى، ذهبت مباشرة إلى بيت العم مبروك، وصلت بعد أن خرج العم سيف بقليل، كان مبروك يتلوى من الألم، فجاءت أمي لتنهي أمره، وقفت على رأسه وسكبت الرماد عليه، لم تنبس ببنت شفة، وخرجت عائدة إلى البيت. منذ تلك الحادثة والكل

يخاف من العم سيف، اعتزلهم ولم يتداخل بعدها مع أحد منهم، لقد شعر بأن الجميع كان متواطئ على ضرب سعود حين لم يسعفوه.

كنت في رحلة قنص مع ود مفتاح ومرهون ود الصْلِبْ، قضينا أسبوعا في الجبال، اقتنصنا الكثير من الوعول، ثم ذهبنا وبعنا بعضها في السوق اما البعض الآخر فقد قطعنا لحومها وشويناها على الفحم. عندما عدت، وجدت سعود بالبيت، متكئاً على جذع اللمباة، ورأسه مربوط بقماشة، عرفت من أمي ما حدث، وما هي إلا لحظات حتى جاء عمي سيف وأكمل الباقي .

لم أشأ أن أنهر أخي عندما حدثني عن الرفق واللين. إن الرفق واللين لبشر لهم قلوب يستشعرون بها، لكن ابناء هذه العائلة ماتت قلوبهم منذ زمن ولم تبق إلا نار الضغينة التي كانوا يذكونها فيما بينهم. كنت ممتنا لوجود العم سيف. منذ تلك الحادثة انقطع سعود عن التداخل مع أعمامه، أدرك في قرارة نفسه أنه لا فائدة ترجى من إصلاح ما فسد، وإن ما قرأه في الكتب يبقى جميلا لكن من الصعب أو ربما من المستحيل تحقيقه.

في أواخر تلك السنة عاد أبي من سفره، كان مسمرّ الوجه، وقد بدا عمره أكبر، وصل في وقت الغداء. هبط علينا من الجهة الأخرى للوادي بعد أن اجتاز العقبات التي تفصل بيتنا عن الحارات الأخرى، وضع أشياءه على جدار المزرعة وصعد الدرج، كنّا نتحلق حول المائدة، كنت أول من شاهده قادما يمشي ببطء حتى تكاد قدماه لا يمسان الأرض، قفزت من مكاني مهرولا ناحيته دون أن أنبس بكلمة. تعلقت به وعانقته، كانت أمي تدير ظهرها ولم تدرك بعد ما يحدث قام سعود بهدوء فالتفتت ناحيتنا واللقمة في فمها، لم تستطع بلعها وارتبكت. حاولت أن تقوم لكنه أسرع إليها واحتضنها وهي جالسة، فأجهشت بالبكاء، تعلقت عامرة وعميره بعنقه، كان يبتسم والدموع تسحّ من عينيه مثل ينبوع عذب صغير

ينفر من إحدى العيون الجبلية. جلس بجوار أمي، جلس هادئا، بعد موجة العاطفة التي مرت بنا، كان ينظر إلى وجوهنا التي تغيرت وإلى الصبيتين اللتين كبرتا فجأة. أما أمي فكانت الفرحة تحوم حول رأسها كهالة حول القمر في يوم غائم .

جلس بيننا، وراح يحكى لنا ما صادفه في رحلته من حكايات لا تنضب. كنت أحب أن أجلس بقربه وهو يقص حكاية دخوله إلى دبيّ وكيف تاه في بعض أزقتها حتى التقاه رجل، وطلب منه بكل واحترام أن يتفضل معه، كان الرجل لبقا ومرحابا إلى أبعد الحدود، أخبره أبي أنه ضل طريقه وأنه يود العودة إلى أصحابه ويخاف أن يتأخر عليهم. ظن أبي انه يستضيفه لكنه أخذه الى ماخور يعج بالنساء العاريات. كان ابي قد سمع من قبل تلك الحكايا التي حدثت للمسافرين لكنه لم يتوقع ان يحدث معه هذا الأمر وهو الرجل القرويّ، ثار غضبه وبدأ في نزاع مع الرجل أمسك به من عنقه وكاد أن يخنقه، فلت الرجل بصعوبة من قبضة أبي، قال له:

- شلني المينا والا بخلي خواتك يجمعن عظمانك .

لقد وقع أبي في الرجل الخطأ، خرج الرجل أمامه خائفا حتى أوصله الميناء، وبعد أن وصل صفعه على وجه حتى كاد أن يسقط على الأرض، وقال له :

- تعرف هذي الصفعة ليش؟

ركض الرجل واختفى بين الأزقة بدون ان يلتفت، بينما غرق أبي في نوبة ضحك مما حدث. يحب أبي أن يسرد تلك الحادثة كثيراً وكلما حكاها غرق في نوبة ضحك حتى تبتلّ وجنتاه بالدموع فهو يكررها مثل حكايات عديدة حدثت معه حفظتها عن ظهر قلب بسبب تكرارها .

لم يتبق لأبي من رحلته إلا تلك الذاكرة. أحيانا يصمت، تعتلي وجهه سحابة صغيرة من الحزن، ربما لأنه يتذكر حكايات لا يريد أن يقصها علينا، قد تكون مليئة بالألم والعذاب والبؤس والإحباط، كان يهزّ رأسه، طاردا تلك الأفكار السوداء التي تحوم حوله .

علم العم سيف بخبر قدوم أبي فجاء، وعادت السهرات القديمة والحكايات التي تولّد الحكايات. الإنسان هو مجموع تلك الحكايات التي يسمعها وهو صغير من أهله، أنا مؤمن بذلك، فكما تكون طفولتك يكون شبابك وحياتك كلها .

بعد أيام قليلة في إحدى السهرات الليلية، قال أبي محدثا العم سيف :

– مشتاق الشحثة، ماشي يوم في الغربة إلا وأحلم إني فشيء من الوديان .

فرح العم سيف، وانتعشت نفسه، كيف لا وهو يحب أن يرافق أخاه الأكبر ويحب أن يستمع منه. عندما تذهب في رحلة الصيد مع العم سيف فأنت في موضع اختبار، عليك أن تكون أكثر حذرا لما تقوله، وعليك أيضا أن لا تصمت، فهو يكره الصامتين إلاي فأنا الوحيد المسموح لي بالصمت، خصوصا في أوقات الراحة، قبيل الغداء وفي المساء وعلى قهوة الصباح، يحب أن يستمع للناس وحكاياتهم، يقبل عليك بوجهه ويستمع إليك، يوليك اهتمامه كاملا، ويشاركك الحديث، فإذا اصطدم برجل صامت سيتحمله بصمت أيضا، لكنها ستكون المرة الأخيرة التي يكونان فيها رفيقين.

أبي ايضا يحب الحكايات، تندلق من فمه الحكاية تلو الحكاية وكأنها عين ماء عذبة تخرج من أصل الجبل. بعد أيام ذهبت برفقتهم، كنا أربعة، أبي وعمي سيف ومعنا ود مفتاح، اتجهنا إلى الوادي صعودا حتى وصلنا إلى

وادي النمارات، دخلنا في عمقه حتى آخره ثم صعدنا الحد الفاصل بينه وبين وادي الجروف، عندما وصلنا إلى هناك قرر الجميع المبيت في القمة .

قمة وادي الجروف عجيبة، فحين تكون هناك تنسى أنك في قمة الجبل، المياه تسيل في القمة والنخيل ينتشر عليها حتى يخيل إليك أنك في بطن الوادي. كان الوقت شتاءً، والنهار بشمسه وبرودته لطيفاً، علقنا أشياءنا على شجر القطف ووزعنا الاتجاهات، أنا وابن مفتاح سنصعد صوب القمة التي تطل على وادي الميابين، وأبي وعمي سوف يتجهان إلى وادي الريان، والملتقى قبل الغروب في مكان المبيت بوادي الجروف .

ذهب كلا منا في اتجاهه وعدت وصاحبي دون أن نصادف شيئاً. كانت الشمس على وشك المغيب، بدأنا في تجميع أعشاب السخبر من السفح، ملأنا بها أرض الكهفين الكبيرين لتكون هذه الأعشاب فراشنا الذي نفترشه للنوم، اتقاء من الأرض الصلبة، عاد الآخران مع المغرب، كان عمي يحمل عتودا صغيرا على كتفه .

الريح في قمة وادي الجروف قارصة، كان العشاء سريعا فالكل كان متعبا من أثر أول أيام الرحلة، خلدنا إلى النوم دون سهر ولا حكايا. توزعنا كما في رحلة القنص نمنا أنا وود مفتاح في كهف واحد، ونام أبي وعمي في الكهف الآخر .

في منتصف الليل صحوت وأنا أكاد أختنق من أثر الريح التي كان يطلقها بطن ود مفتاح. أخرجت رأسي من الكهف فلفحتني الريح الباردة، انتفضت من البرد فدخلت، حاولت أن أبدو طبيعيا تحملت الرائحة مرة أخرى لدقائق ولكن لم استطع، حاولت أن أغمض عينيّ وأنام، كان ود مفتاح في بعض الأحيان يتقلب على الأرض ويطلق شخيره العجيب، ثم

تأتيك قذيفة أخرى من بطنه، لم استطع الاحتمال، خرجت من الكهف، صرخت بكل صوتي:

- والجور والغوث، والجور والغوث، والجور والغوث .

صحا النائمان في الكهف الثاني وخرج عمي كالمصعوق وقد تأهب ببندقيته ليطلق النار ظنا منه أن أحدا ما قد هجم علينا، وظن أبي بأن أفعى قد لدغت أحدنا، اقتربا مني مسرعين، سألني أبي :

- مو هناك ؟

- شوفولي مكان أرقد فيه والا بيقتلني ود مفتاح من ضريطه .

انقلب المشهد إلى كوميديا، لم يستطع العم سيف تمالك نفسه وهو يمسك بطنه من قوة ضحكه، صحى ود مفتاح على ذلك الضجيج وهو لا يعرف عن الأمر شيئا، أطل برأسه من الكهف، وقال :

- والله انتو جن، حد يطلع تو فهالبردة غيركم .

أشرت إليه وأنا أحدث أبي وعمي :

- مو رايكم أقتله ؟

ود مفتاح ما زال لا يدرك شيئا من الأمر، وعمي وأبي يضحكان حتى أدمعت عيونهما .

سحبت بعض الحشائش من الكهف والتجأت إلى كهف صغير لا يتسع لرجل واحد يتمدد فيه، لكنني حاولت أن ألف رجليّ إلي، شعرت بالدفء وبالراحة والهدوء، شعرت بعذوبة الهواء، أغمضت عينيّ ونمت نوما عميقا لم أصحُ منه إلا فجرا.

كلما ذكر العم سيف تلك الحادثة التي يطيب له أن أحكيها بلساني يعود إلى ضحكه وكأنه يسمعها لأول مرة. أما ود مفتاح فاستيقظ صباحا وكأنه نسي ما حدث الليلة الماضية، ولما ذكره عمي بما حدث، ادعى بأنني أنا من كان يطلق الرائحة في الكهف وليس هو .

في الصباح اجتمعنا على القنيصة وبدأنا في تقطيعها، بحثت عن حطب في الجوار، كانت أعواد شجر القفص اليابس في كل مكان وشجرة شوع كبيرة أيضا على مقربة قد تيبس بعضها دخلت الى الوادي وجمّعت ما استطعت تجميعه من الحطب وعدت، كان فطورنا الصباحيّ بعض لحم كبد القنيصة المقلي وبعض من لحم صدرها الرقيق .

عادت الرحلات تجر بعضها بعضا وعدت إلى رفقة أبي. في ذلك الوقت كنت قناصا يشار إليه بالبنان. لم تقف في وجهي قمة إلا وصعدتها، ولم أسمع بواد بعيد إلا وذهبت إليه ونمت فيه وشربت من مياهه، وأكلت من لحم وعوله كنت كالريح أذهب لوحدي او بمعية شخص ما ساعة ما يحلو لي، وأتوقف ساكنا كيفما شئت .

(3)

لملمت أشيائي في الحقيبة وعلقت البندقية على كتفي بعد أن حملت الحقيبة على الظهر. بدأت شمس الأصيل تميل ناحية الغروب. كانت القيلولة رائعة وناعمة مثل صوت الريح على أعواد الرسل والإثل. بدأت الصعود من وادي سحبوه إلى وادي الميابين، الريح تشتد وتبرد كلما صعدت وأعواد نبتة السخبر تعزف لحنها المميز، العسبق يقف مادا أصابعه صوب السماء والشوع يتأرجح بأغصانه راقصاً وأنا وحيدا أقطع المسافة ببطء صوب الأعلى.

كنت في كل خطوة أخطوها للأمام أعيد سيرة عقود من الزمان، وأستعيد وجوه بشر عاصرتهم، جاءوا من قريتنا أو من القرى المجاورة، أو التقينا بهم صدفة وهم ذاهبون الى رحلاتهم البعيدة.

ها هو الجبل الآن يبدو مثل صحراء مقفرة، مثل بيت مسه خراب وتهدمت أركانه اقول ذلك لأنه فرغ تماما فلا حطابين ولا قناصين ولا رعاة هناك، جلست عند الحد بين الرافدين اللذين يصبان في وادي خويلص، كان صوت المياه وهي تنزل المنحدرات يصلني مع الريح الخفيفة وقمة السويح تقف امامي وقد انعكست أشعة شمس الأصيل الذهبية عليها وملأتها بالظلال القاتمة. بدت أشجار العسبق كأنها أشباح تتراقص بين الضوء والظل واكتست سفوحه بالوحشة بعد أن كان يُسمع من بين ثناياها تغاريد الطيور الجبلية أو تحليق الحمام الرمادي، كنت أسمع هديله من مسافة بعيدة حتى

طائر المنعيم وبالرغم أنه ما زال موجودا إلا أنه اكتفى بالصمت والوقوف على الأشجار لم يعد رفيق القناصين الذي يدلهم على الطرائد.

وأنا في هذا العمر أبدو مثل جبل مهجور لا اكاد اشعر ان لي ملامح ما، لكن رغبة عارمة تسيطر علي كلما فكرت بتلك اللحظة التي ساقتنص تيس الوعل، ما زلت رغم جهدي ومشقتي ابحث عنه أعرف أنه في مكان ما يقف الآن ينظر إليّ. أعرف أنه هنا، انه لن يموت ما دام هنالك قنّاص يترصد به. قضيت جُل حياتي وأنا أحاول قنص التيس ولكن بلا فائدة، فبرغم القنائص التي سقطت أمامي وبرغم الذاكرة التي أكتنزها عن كل شبر في هذه الجبال، إلا أنني ما زلت غير مكتمل، لقد رسخت مقولة عمي في ذهني عندما قال لي ذات يوم :

- ما تكون قناص إلا يوم تقنص التيس العود .

الوعل الكبير، وعل جبال الحلوي السوداء، معقوف القرنين، ذو اللحية المدببة، الضخم الجثة، الذي يزن أربع عنزات من ضخامته، لقد قنصه أبي هبط به من قمة وادي صريد وقد قُصم ظهره من ثقله. وجاء به عمي ذات يوم، لكنني لم أوفق لحد الآن، وها أنا الآن وقد أخذ مني العمر مأخذه أحاول محاولاتي الأخيرة بتخفٍ شديد للبحث عنه في آخر القمم التي من المتوقع أن اجده فيها .

في أول مرّة أرى فيها الوعل الكبير كان يُخيل لي بأنه مخلوق عجيب ليس من عالمنا، كنت قد صدقت الحكايات عن حراسة الجن له، وقد يكون الوعل من عالم الجان المخفيّ .لم تقارق صورته الأولى مخيلتي فكلما أغمضت عينيّ أراه هناك، كان لا يزال معلقا على الشجرة مسدت بيديّ على رقبته، ومسحت على قرنيه، دخلت اليه من بؤبؤيّ عينيه وسافرت إلى داخله، رعيت معه من قمة إلى أخرى، وشممت رائحة أنثى في الوديان

القريبة، ثم هبط بي إلى إحدى الكهوف الحصينة ونام نومته الأبدية .

الوديان هي الوديان والقمم ما زالت كما هي لكن شيء ما قد اختفى. اختفت الروح التي كانت ترشدنا إلى هنا، ماتت بموت البشر الذين مروا على المكان وسأموت أنا ذات يوم. ربما سيجيء زمن ما وسيعود الناس فيها إلى الجبال قد يلجؤون إليها خوفا وأمنا بعد أن هجروها وستعود الروح مرة أخرى. الروح التي نامت منذ أمد في باطن الكهوف، ستصحو، وسيمتد ذيلها مثل أفعى كبيرة تطوق المكان .

في أواسط السبعينات كان أبي يستمع إلى الإذاعة صباحا فأعلن مذيع الأخبار عن المرسوم الذي يحظر صيد الوعول وإلى العقوبات التي يستحقها من يخالف هذا القانون الجديد .

فزّ أبي من جلسته وكأن حشرة قد لدغته، أمسك رأسه بيديه وكأنه فقد شيئا عزيزا عليه، حالته كانت أقرب إلى امرأة فقدت صغيرها وهي تبحث عنه بين الحارات، قلبها وجلٌ من أن يطول غيابه، وأملها يطل من عينيها بحثاً عنه.

صدّق الخبر الذي سمعه وكذّبه في ذات الوقت، استمع مرّة أخرى للتفاصيل، قام من مكانه واتجه إلى بيت أخيه العم سيف وكنت بصحبته، شعرت بأن هذا القانون لا يعني أحدا في هذه القرية ولا هذا العالم غيرنا، كان أبي يسرع في مشيته وأنا خلفه بعض الأحيان أمشي بجواره، رأيت العرق يتصبب من جبينه قطعنا الوادي، كانت رجلا ابي تتقافزان فوق الحصى الذي صقلته مياه السيول وقدماه لا تكادان تصلان إلى الأرض وكأنه من عجلته يمشي على صفحة هواء، ما ان صعدنا التلة حتى صاح على أخيه، كان العم سيف مستلقيا وقد أسند رأسه على وسادة خضراء اللون داكنة، دخلنا عليه وهو مبتسم .

- مو هناك ؟
- سمعت الريديو ؟
- هيه سمعته .
- بس كيف يمنعوا القنص؟
- يمنعوا بو يبغيوا يمنعوه، مايلنا خص .

كان العم سيف هادئا جدا وكأن الأمر لا يعنيه، لم يكن كعادته، هدأ ابي قليلا لكنه حائر في رد أخيه، لكن العم سيف قطع الشك باليقين عندما أخبرنا بما يدور في خاطره .حيثما توجد طريدة يوجد قنّاص، هذه سنة الحياة، وهذه الجبال لنا، من يعرف عنّا أننا قنصنا وعلا أو عشرة وعول؟ فلْيسِنّوا قوانينهم كما يشاؤون، قوانينهم لا تخصنا، ولا نستطيع في ذات الوقت أن نحارب الحكومة، نحن محتاجون إلى أن نسلك طريقا مختلفا إلى الصيد، هذا كل ما في الأمر. كان العم سيف يتكلم بهدوء تام وهو ينتقي حبات التمر ويلقمها فمه بعد أن يدلّكها، وكان أبي ينظر إلى أخيه نظرة ارتياب من هذا الصوت الرخيم الصاعد من حنجرته، والذي يتحدث بكل تلك الثقة.

إن التوجس من الوقوع في المحظور يطلب منك أن تغير نمط حياتك التي اعتدتها. قبل هذا الحظر كنا كقناصين نذهب وقتما ما نشاء إلى رحلاتنا، لكن منذ الآن علينا أن نذهب خفية، ونترك وراءنا أخبارا مختلفة مثل أننا ذهبنا إلى العاصمة أو إلى أي جهة أخرى .

لم يكن أهالي القرية يسألون عنّا حين نذهب آو نأتي، لكن بعد خبر حظر القنص بدا وكأن الجميع يتربص بوقوعنا في المحظور. يذهبون ويجيئون، يسألون من يخصنا بـ«أين فلان؟، لم أره اليوم» وهكذا بدأت الأسئلة تخلق

وراءها أسئلة، والغياب يفرّخ ضغائن وأحقادا، وكان كل من في بيتنا قد تعود على إجابات جاهزة لا يستفيد من ورائها أحد .

الفجر هو الوقت المناسب دائما لرحيلنا، كنا نتخذ الطرق التي تفضي مباشرة إلى خارج القرية دون المرور بأمكنة نتوقع وجود أشخاص فيها فقد يكون أحد البيادير وهو يسقي في تلك الساعة. لا نعرف اي عقوبة سننال أن وشي بنا إلى الوالي، ولا نعرف كم من المشاكل التي يمكن أن تقع بسبب خطأ بسيط، أو عدم الاهتمام بالسرية التامة .

نحن قناصون نعم. العادة تنادينا. الذاكرة تدفعنا الى العودة إلى كل مكان عشنا فيه من قبل. الألفة والشقاء الذي لاقيناه في بعض الأيام كلها أسباب تدفعنا لكي نستمر في رحلاتنا فالوعل ينادينا، هو ما زال هناك يهبط من المنحدرات ويشرب من غدران الوادي ويقف على حدود الجبال وعلى القمم يستأنس بأصواتنا فيقترب. يراقبنا من الأعالي ويتنسم رائحة النار وشذى القهوة، بل أنه يتشمم روائحنا الذي بات يعرفها واحدة واحدة .

منذ ذلك الحين توقف الكثير من الناس عن الذهاب الى الجبال، حظر صيد الوعول جرّ معه امتناع الناس عن الحياة في الجبل. الحطابون وجامعو الحشائش توقفوا، اكتفوا أن يذهبوا بسياراتهم إلى حياة القرية للسيوح والوديان المجاورة للقرية. الرعاة استقروا بالقرب من القرى وبقي العسّالون هم فقط من يذهبون في موسم الربيع بحثا عن العسل الجبليّ بينما توقفت الحركة وخفت الرجل عن طرق الدروب واجتياز العقبات .

كانت الأمطار تهطل كل سنة على أعالي الوديان، فتجرف معها الحصى والطين والأشجار الميتة وتنظف المكان مما علق به من بقايا الحيوانات أو من بعض ما يتركه الإنسان حين مروره، وكان من ضمن ما تجرفه السيول آثار الدروب على المنحدرات الجبلية .

بعد كل سيل تعود الحياة من جديد إلى المكان، يأتي الناس الى الجبال بحثا عن رزق ما، كل شيء يوجد في الجبال، والجبال خزائن الله التي أودع فيها الرزق، لذا يبدأ الناس في تجديد الدروب ووضع العلامات التي تهدمت واندثرت وسحلها السيل فيفرح المكان بثوبه الجديد ويسعد بالقادمين إلى أحضانه، يستقبلهم بكائناته وبأصواتها المميزة، طائر أبو صريد يصفّر من القمم والمنعيم تتقافز أمام القادمين، في الليل نسمع ضباح الثعالب وتقترب لتشاكس وتأكل زاد الغافلين عن أمتعتهم بينما يحتفل البعوض في أمكنة معينة آخذا وجبته من الدم ومغنيا طوال الليل برقصاته العجيبة فوق أجساد ضحاياه وفوق صفحات مياه البرك الضحلة.

لكن من سيجدد الدروب وقد خفت الأقدام عن طرقها؟ القناصون تحولوا إلى مهن أخرى أقل خطورة وأكثر أمانا وكسبا، بعضهم توظف في الدوائر الحكومية والبعض الآخر تلقى راتبا من الضمان الاجتماعيّ يكفيه لكي ينسى الدروب التي قطعها من قبل وإلى أي وادٍ انتهت به .

أما نحن، أنا وعمي سيف وأبي وود مفتاح ثم بعض أولادنا بعد ذلك كنا نذهب خفية وقد تغيرت حياتنا. لم نكن كما نحن. خفّت أرجلنا عن القنص، وبتنا نحسب ألف حساب لكل رحلة نذهب إليها .المهم في كل ذلك هو أن تخرج من القرية دون أن يعلم بك أو يراك أحد. لكن عندما تكون في كنف الجبال فهي كفيلة بك، تضمك عن عيون الرقيب وتبعدك عن الوشايات المغرضة .

صار لزاما علينا أن نعد العدة لكل رحلة قبل أسبوع أو أسبوعين، وأن نخرج خفية وبسرية تامة حتى على من هم أقرب الناس إلينا فإذا اصطدنا وعلا لابد من دفن إهابه وبقاياه والتخلص من أي شيء يدل على وجودنا في المكان، وبالطبع توقفت الأحاديث التي كنّا نتمتع بسردها على من يزورونا

عن هواية القنص وعن الوعول وما لاقيناه في الجبال .

كبر القنّاصون وشاخوا وتوقف أبي عن الذهاب بعيدا. كانت أقصى نقطة يصل إليها هي جبال العين ووادي مقدسي القريب من القرية. أما العم سيف فلقد عانى كثيرا من آلام رجله، بعد أن تأكدت إصابته بعرق النسا لكن حنينه لم يزل كما هو وكانت كل أحاديث مجلسه عن رحلاته في القنص .

ذات يوم قال لي العم سيف :

- فوادي أوصل خب الغافة .

أدركت من كلامه أنه يريدني أن أذهب معه، وبرغم الآلام التي كان يعانيها، برغم العرجة في مشيته إلا أن إصراره جعلني أرتب لتلك الرحلة، اتفقت مع ود مفتاح وحددنا موعد الخروج من القرية، ثم أبلغت العم سيف بذلك، فتهللت اساريره وفرح كثيرا، رأيت الامتنان يملأ عينيه، كنت أدرك معنى أن يتمنى رجل عشق الجبال أن يصل إلى نقطة ما فيها ولو كلفه ذلك تعبه وصحته، لكنني أردت أن أحقق له هذه الأمنية لعلها تفيده فيما تبقى له من عمر .

أمرنا أن نتقدمه، مشي وحيدا وببطء شديد بعد أن وعدنا بأن يصل، تقدمناه ووصلنا إلى خب الغافة قرب الظهر، وبدأنا في إعداد الغداء، أبقينا له بعض الرز والسمك المخلوط بالبصل وأكلنا الباقي، ثم نمنا القيلولة، لم يكن في همنا أن نذهب إلى مكان معين، قررنا أن ننتظره فقط .

جاء قبيل الغروب، كانت رجله تؤلمه جدا، استراح على الرمل ومدّ رجليه وبدأ في تدليكهما، قام ود مفتاح وأشعل النار في الموقد، ملأ الدلة بالماء وصنع القهوة، ثم وضعها أمامنا، فتحت كيس التمر وقدمته إليه اولا هذه علامة على احترامنا له ولأنه كبيرنا ومعلمنا. بدأنا في تناول التمر، كنت آخذ

قبضة منه وآكلها ثم ألقي بالنوى داخل البركة فتجتمع أسماك الصدّ على النواة تمتص ما علق فيها من السكر .

سكب ود مفتاح القهوة في الفنجان وقدمه إلى العم سيف، كان العم سيف يأكل صامتا على غير عادته، رفع الفنجان وابتلع أول جرعة فيه، أغمض عينيه وتنفس بعمق، شرب الجرعة الثانية، ثم انفجر باكيا مثل ثكلى فقدت وليدها، أو مثل طفل ضائع، كان يبكي بحرقة، تردد صدى نشيجه على السفوح القريبة ولبكائه بدأ ود مفتاح يبكي أيضا، كنت أحوّل نظري بينهما وهما غارقين في النشيج .

- مالك تبكي عمي ؟
- كيف ما أبكي وأنا عشت على ريحة هالفنجان .
- وانته ود مفتاح، مو يبكيك ؟
- بكاني عمك .

ربما بكى عمي حياته التي قضاها، طفولته، عداء إخوته، الجبال التي صعدها، الوعول التي صادها وعلقها على كتفه، بكى الفراغ الذي احتله فجأة، بكى الحياة التي تتحول إلى ثقل عجيب في نهايتها، ثقل لا يطاق، بكى الوديان التي أصبحت مهجورة، وبكى نفسه وسيرته .

نزلت المنحدر صوب وادي الميابين، الهبوط الحاد أثّر في ركبتيّ، شعرت بطقطقة صغيرة ومؤلمة في صابونة الركبة، وبرغم الألم الذي يشبه وخز إبر صغيرة إلا أنني واصلت الهبوط إلى الأسفل، كانت الشمس أعلى القمم تؤذن للغروب .

اخترت مكانا منبسطا وناعما من الرمل في وادي الميابين وعند بركة الماء الكبيرة الصافية كدمعة وضعت حقيبتي وأشيائي ثم قمت إلى شجرة قطف

بالجوار واقتطعت منها ثلاثة أغصان شبكتهم في بعض وصنعت مشجبا علقت عليه القربة والمنظار وبدأت في إعداد القهوة، أخرجت المذياع من الحقيبة وبحثت عن بعض القنوات، توقفت عند إذاعة البي بي سي العربية، كان صوت المذيع يخفت فجأة ثم يأتي واضحا لفترة فيعود للخفوت، ولأنني من عشّاق هذه الإذاعة وبرامجها، تركت شعرة المذياع عليها. وكنت اصغي مع حبات التمر وارتشاف القهوة.

(4)

ضوء الفجر الشحيح النابع من الأفق أعطى الأشياء لونا فضيا، النسمات الباردة أعلنت قرب الشتاء، صوت الماء المنحدر والمتبلور في جدول صخري صغير يدخل في كومة كبيرة من الحصى، وسط هذه الصورة خلعت ملابسي كاملة ودخلت البركة الباردة، ليس هنالك متعة تعادل أن اقضي لحظات قصيرة منسجما ومستحما في مياه الجبل، خاصة وانه ينتظرني عمل شاق في صعودي إلى الميابين.

نمت نوما عميقا وعندما صحوت جلست أتذكر إن كنت قد حلمت بشيء لكن لم أصحُ إلا مرة واحدة لكي أغير موضع رقدتي، كان الرمل ناعما وليّنا وأفضل من بعض الأسرة الوثيرة .

لا رسالة في حلم ولا طائر أصادفه منذ الصباح. لا خالج تحت العين ولا كآبة أو كسل في النفس. كل شيء هادىء وساكن فقط طائر أبو صريد ينتقل بين قمة واخرى بصوته الذي يشبه رنيناً معدنياً نقياً.

خرجت من البركة، لبست ملابسي ثم أقمت الصلاة، زاد السكون من خشوعي في الصلاة. وحدي هنا، وحدي يا رب في ملكوتك الجبلي، ولم يتبق من العمر إلا قليل، وحدي أقف بين يديك، أنا الكائن الحجريّ المتآكل والعجوز، لا أحمل إلا ذاكرتي وبعض الأمل .

بعد الفنجان الأخير لملمت أشيائي وقمت، صعدت الوادي، بندقيتي مليئة بالرصاص وجاهزة لأي حركة مباغتة، أقفز من جدول إلى آخر،

حاولت تناسي الألم في ركبتي الناتج من هبوط عقبة البارحة، صعدت الالتواءات والمنحدرات، أجتزت الشلالات واحدا تلو الآخر، كل ميبان مررت عليه أوحى لي بأنه ليس هنالك من ميبان أكبر منه وهكذا حتى أصل إلى رأس الوادي. هناك في الأعالي نبتت شجرة قطف كبيرة تظلل بأغصانها فتحة كهف، وفي الأسفل ينبوع ماء انبثق من شقّ صخري وتجمع في حوض عميق، ملأت منه القربة وعلقتها على شجرة القطف ثم وضعت إناءً على الأرض لاجمع فيه قطرات الماء المتسربة من القربة والتي سأستخدمها في صنع القهوة أو في غسل الفناجين .

ملأت إناء آخرا بالماء ووضعته تحت الشجرة وغطيته بغطاء حتى لا تتساقط فوقه بعض الأوراق اليابسة أو قش الأشجار المتطاير. كان وقت الظهيرة مبكرا للقنص، لذلك، فتحت المذياع على القناة المحلية واتكأت على وسادة حجريّة ودخلت في سبات جميل .

بعد ان داهمته امراض كثيرة في جسده ومفاصله اصيب عمي بالعمى ومنذ ذاك صار كانه ميت يشعر بغربة في نفسه بعد ان عجز من ان يقوم بعادته استسلم تماما ضعف جسده وفقد الكثير من طاقته، لم يتبق له إلا الأحاديث والذكريات عن الأمكنة التي وقف عليها في تلك الوديان. يكفي أن تجلس بجانبه وتطلب منه أن يحكي لك قصة طريفة حدثت معه خلال رحلات القنص، حتى ينهمر عليك بالكلام مثل مياه متساقطة من ميبان مرتفع، يتذكر التفاصيل وكأن الرحلة قد قام بها البارحة أو منذ أسبوع. كنت أتعجب من مقدرة العم سيف على سرد الحكاية بتلك التفاصيل وبتلك الدقة، فهو يتذكر ما حمل معه من أشياء وماذا أكل وماذا سمع وما الذي صادفه في طريقه .

في الشتاء أصابته حمى شديدة، نقلناه على إثرها إلى المستشفى، ولم يلبث فيه إلا يومين. أخبرنا الطبيب بأن حالته في تحسن لكنها تدهورت فجأة

ومات. أتذكر ذلك اليوم، كنت أقف بجانبه وأُحادثه، مدّ يده فأمسكت بها، شدّ على يدي وابتسم. في مساء ذلك اليوم وأنا في طريقي إلى القرية بعد زيارته مباشرة جاءني هاتف من المستشفى يخبرني بأنه قد فارق الحياة .

بعده بسنوات توفي أبي، كان في طريقه إلى نخيله في طرف القرية، وجد هناك متكورا فوق قناة الفلج، وقد كتب الطبيب في تقريره عن الوفاة بأنه أصيب بجلطة إثر نوبة قلبية بالرغم أنه لم يكن يعاني من أي ارتفاع في ضغط الدم .

فتحت عينيّ ونظرت إلى الأعلى، كانت السماء بيضاء ومغبرّة بعض الشيء وثمة نسر مرتفع جدا يحوم فوقي مباشرة، وبعد قليل يدخل نسر آخر إلى الساحة ، نسران يحومان في صفحة السماء الواسعة في أعلى القمم. نسران يطلان على المكان من فوق ويبدوان مثل نقطتين صغيرتين تتبعان بعضهما بعضا في حلقة متكاملة تبدأ بالاتساع.، نسران يدوران حول نقطة معينة حتى تكبر الدائرة وتتسع، يخرجان من محيط الرؤية، صرت أحيانا أراهما على الجانب أعلى قمة السويح، ثم يمر وقت طويل حتى يعودان، تعود الدائرة مرة أخرى في الانقباض، تصغر المسافة بينهما، تصغر الهوة والبعد، وهما ما زالا يفردان أجنحتهما على ذات الارتفاع ويحومان فوقي، في ذلك البياض الشاسع .

منذ طفولتي وأنا أرى نسر الجبال الأبيض لا يفارق هذه القمم، يبحث عن سمرة كبيرة ليبني فوقها عشه، أتذكر عشه الذي بناه على سمرة في خبّ الغافة كما أتذكر فرخه الكبير الذي ترك وحيدا في العش، بينما كانت أمه تحوم بحثا عن شيء تطعم نفسها او تجلب شيئا لفرخها، كعتود صغير أو ثعلب أو حتى حمامة، وقد تعثر على جثة وعل ميت أو حمار جبليّ. أمسكت بغصن طويل وبدأت أنخز الطائر فما كان منه إلا أن أمسك الغصن بمنقاره

القوي ونفضه، كانت نفضته من الشدة جعلتني ارتعش خوفا وتركته.

يترقب النسر الحيوانات والجيف ويستمر في العيش هنا ما دام لديه قوته الذي يكفيه. والجبال مخازن غذائية لا تنضب له ولأجياله القادمة .

في السنوات الأخيرة ترك الناس الحمير الجبلية في حالها بعدما كانت تشكل تجارة ممتازة، كانوا يصنعون لها فخاخا من الوديان ثم يتم تدريبها وتأديبها حتى تتحول إلى حيوانات أليفة لتباع بعد ذلك على من يريد ان يستخدمها. لكن صارت تتكاثر دون أن يلتفت إليها أحد وبدأت أعدادها في ازدياد، حتى أنك لا تسمع إلا نهيقها ووقع حوافرها على المنحدرات وهي تركض جافلة من طرقك للمكان.

لذا فليس من المصادفة أن تجد حمارا نافقا في طريقك ليصير وجبة دسمة للنسور.

الساعة قاربت الثانية عشر ظهرا، صنعت وجبة غدائي، وحينها طبخت مرق العوال على الرز الأبيض لا تأخذ وقتا اطبخ القليل من الرز، ثم انقع شرائح العوال الصغيرة في إناء صغير آخر مع البصل المطبوخ وبعض الثوم والبهارات الخفيفة تفوح رائحة مرق العوال في المكان، غطيت الوجبة لتبرد قليلا لحين ما انتهيت من صلاتي، ثم بعد أستمتعت بوجبتي اللذيذة بهدوء وبطء، أخذت قيلولة واثناء ذلك سمعت صراخ النسر من فوقي وكأنه يرقبني ويود أن يهجم عليّ، رأيته يهبط من عليائه ويقف بالقرب مني، كان متوجسا، ينظر ناحيتي ويصيح، ثم يحلق ثانية ويعود إلى دورانه في الأعالي

لم أشأ تفسير الحلم، قمت من رقدتي وأخذت القربة ودلة القهوة وبعض التمر ثم وضعت السكين في حزامي، علقت بندقيتي وصعدت باحثا في الأعالي عن شيخ الوعول وسيدها .

اتخذت طريقا لولبيا في صعودي إلى رأس وادي الميابين، تعمدت أن أصل إلى الحد الفاصل بين وادي خب عمر وبين وادي الميابين من جهة وقمة السويح ووادي الجروف من جهة أخرى، هناك في ذلك الحد، أستطيع رؤية الكثير من الجبال والقمم المتقاربة، واستطيع أن أرصد أي تحرك فيها، طائرا كان أم وعلا، وصلت بعد ساعة كاملة من الصعود وجلست أراقب المكان كان الهدوء يعم الأرجاء وبعد فترة قررت الصعود ناحية قمة السويح، صعدت الدرب المتآكل وبينما أنا في وسط الطريق كنت واقفا أستريح من اللهاث، سمعت صوته، سمعت صفقته، حبست أنفاسي وأصغيت السمع مرة أخرى. سمعت الصفقة ثانية قادمة من جهة الشرق، وزعت نظري سريعا على القمم وعلى المنحدرات، أمسكت ببندقيتي وسحبت الرصاصة، صارت جاهزة الآن للانطلاق في أية لحظة.

كان فوقي مباشرة يقف أمام شجرة لقم كبيرة. تيس الوعل بقرنيه المقوسين، يراقبني من الأعلى ويصفق بصوته فيتردد صفيقه في المكان في تلك اللحظة، عاد إليّ كل ما تعلمته من عمّي ومن أبي كما عادت كل السنين التي بحثت فيها عنه، وبعد أن وضعته في دائرة التصويب سمعت من داخلي صوت عمي يقول :

- لا تشوف عليه كله، شوف على راسه والا فواده .

سحبت بندقيتي بسرعة، وصوّبت ناحيته، وقف في مكانه ينظر إليّ، أخذت نفسا عميقا ثم قطعته وشعرت بأن كل شيء توقف لحظتها الساعات والأيام، النسور في الأجواء حبست أنفاسها عن الدوران. لم أعد أسمع سوى وجيب قلبي المتسارع والذي حاولت تهدئته. ولأن هذه الفرصة لا تعود ثانية ولأن الزمن يأخذ اللحظات في طريقه ولا يقف. اخترت نحره، اخترت موضع فؤاده ولوح كتفه، ثم ضغطت بإصبعي على الريشة، بسم

الله، الله أكبر، وانطلقت الرصاصة .

تهاوى الوعل، سقط التيس في مكانه، أجفلته الطلقة فقفز إلى الخلف وسقط على شجرة اللقم، صعدت ناحيته مسرعا، اجتزت المنحدر بسرعة عجيبة ووصلت إليه. تناولت السكين من حزامي، قبضت رأسه بيد، وجررت السكين على رقبته، كان يلفظ أنفاسه الأخيرة، ذبحت الوعل وجرى الدم على الحصى بعد أن رفس بقوائمه بضع رفسات قبل أن يهدأ تماما.

كان وعلا كبيرا، فتحت بطنه وأخرجت أمعاءه، حاولت أن أحمله لكني لم استطع، كان ثقيلا جدا، حززت رأسه بقرونه الكبيرة، ثم مددت السكين على ظهره وأضلاعه، قسمت الحيوان إلى نصفين، حملت نصفا واحدا ونزلت به إلى الأسفل، ثم صعدت مرة أخرى وحملت النصف الآخر .

بدأ صراخ النسور وتذكرت الحلم الآن، صعدت ثانية، أخذت رأسه وهبطت إلى الكهف، كومت أجزاء القنيصة على بعضها في مكان صخريّ نظيف ثم علقت الرأس من قرنيه على شجرة القطف، وجلست أستريح من التعب .

ناديت في خاطري، يا أبي، يا عمي سيف، يا ود مفتاح، يا أيها الناس، ها أنا أخيرا قد صرت قناصا. ها قد سقط تيس الوعل برمية واحدة من بندقيتي، دون أن تحرسه مخلوقات الأرض كلها أو الجن ولا حتى أهلنا الصالحين. أين أنتم؟ تعالوا اشهدوا أنني قد أصبحت قناصا، تعالوا نسهر سوية على تقطيع وشيّ لحمه وتذوق كبده .

صرخت في كل الجهات لكن أدركت أن لا صدى لكل ذلك الصراخ الذي ينبع من الجوف. صرخت لكنني كنت أقع في بئر عميقة ومظلمة من الصمت. بئر لها غطاء يسد عمقها ويفصلها عن الهواء الخارجيّ. صرخت

كثيرا من التعب ومن الذكرى، صرخت في الموت وعلى أحبتي ، لكن الصمت كان يقهقه في داخلي وينشر دخانه الأسود العطن في أعماق البئر ..

بينما كان الرأس معلقا على الشجرة سقطت فجأة في حزن عميق، وتساءلت، وماذا بعد؟ كنت اتناسى تلك اللحظة التي وصلت إليها، ماذا بعد سقوط الوعل؟ ماذا بعد الوصول إلى المبتغى بعد كل تلك المحاولات التي كانت تبوء بالفشل وبالخسائر؟

تيس الوعل سقط، ومع سقوطه قام داخلي عمود كبير من الفراغ ونثر غباره في ذاتي، شعرت بذلك الثقل العجيب، الفراغ الذي سيفرخ في القلب وسيكتسح كل الأشياء الجميلة، الثعبان الشرير الذي يستحوذ على الحياة ويسرقها ثانية .

نظرت إلى قمم الجبال الصامتة وكأن وجوهها تراقبني في تلك الساعة قبيل الغروب، نظرت إلى اللحم المتكوّم على الصخر، لم يكن سوى لحم لحيوان جبليّ، نظرت إلى رأس الوعل المعلق، عيناه فارغتان الآن وقد رحلت روحه إلى الأ قاصي البعيدة، واحتل الفراغ الأبيض مقلتيه، نظرت إلى بندقيتي ولأول مرّة أشعر بها مادة منفصلة لا تعنيني في شيء أنها مجرد حديدة صلبة وقاسية ولا تحمل أية مشاعر .

تلك الليلة الأخيرة لي في الجبال، حاولت أن أكمل تقطيع لحمه، لكنني لم أستطع، سلخت جلده وقطّعت أطرافه، وعلقتها على شجرة القطف تماما بالقرب من الرأس، أخذت كبده وطبختها على العشاء، لم أشعر بطراوتها ولا مذاقها كما كنت في الأيام الخوالي .

حاولت النوم، كانت الأحلام والكوابيس تتدفق في رأسي مثل وديان جارفة هبطت من كل حدب وصوب، الضجيج يملأ الأرجاء وما زالت النسور في كبد السماء تحوم و ترا قب اللحم المعلق على الشجرة، ورأس

الوعل يفتح فمه ويتكلم بلغة لا أفقهها، أقوم من نومي، أستشعر الظلمة وكثافتها، أستشعر كائناتها التي تتحلق بي، أقرأ ما تيسر من القرآن ثم أحاول النوم ولكن لا فائدة .

في الصباح، حملت حقيبتي وبندقيتي وعدت راجعا إلى القرية، نظرت من أعلى السفح على الشجرة، حيث تعلقت أجزاء الوعل، كانت مثل بقع داكنة في جسد ما، رفعت رأسي ،بدأت النسور تتوافد على رائحة الدم .

كنت في كل صعود إلى عقبة وهبوط إلى واد أفقد جزءا مني، أشعر بالضعف يحتلني، أشعر بالسنين تتدفق وأجدني رجلا عجوزا يحتله الفراغ والوهن. كنت أستريح بين مسافة واخرى وأنا أحاول جاهدا التنفس بعمق، لقد اصطدت الوعل أخيرا، لكنني لم أكن اعلم بأنني كنت أنهي كل شيء.

أيها التيس، يا وعل الجبال العالية، يا روحي المنفلتة من أعباء الحياة، ها أنت قد سقطت وتحولت الى اشلاء، لكن هل حقا كنت اريد ان اصطادك؟ هل كنت حقا احلم ان امتلك راسك وامسك قرنيك؟ هل حقا تلك كانت غايتي؟ أم أنني كنت طول تلك السنين اطارد وعلا آخر يركض في داخلي انه وعل الذات، الوعل الذي طارده ابي في داخله وطارده عمي دون ان يصلا اليه حتى يقعان معا في دائرة القناص الاكبر الذي لا يفوته مخلوق ابدا ابدا.. رجفة مرض ومن ثم رجفة حزن وموت.

الأعمال الكاملة
t.me/kotbhm